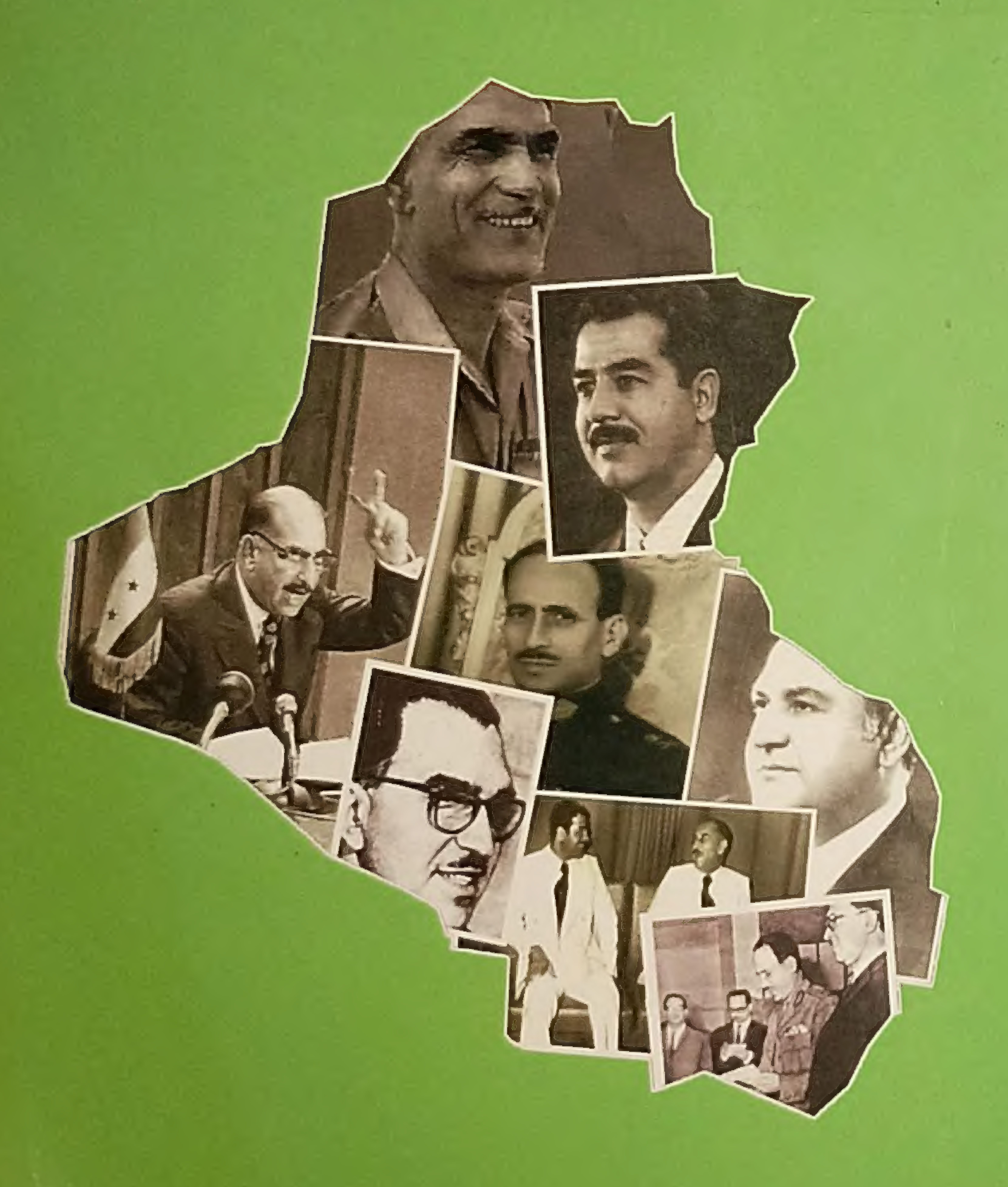
حَكيمُ الحكّام

مِنْ قاسِمٍ إلى صَدّامْ



الاستاذ الدكتور فرحان باقر

مكتبة وأرشيف الزعيم



حَكيمُ الحكّام مِنْ قاسِم إلى صَدّامْ

الدكتور فرحان باقر
استاذ متمرس

الطبعة الثانية منقحة وموسعة

2013

الصافي: للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى كل الطيبين من أهل بلدي العراق ..

إلى كل من نكبوا بفقدان أعزائهم وأموالهم ..

إلى كل المعذبين والمبعثرين والمشردين في أنحاءِ العالم ..

وإلى من حرم من مدفنٍ في مسقط رأسه بعد أن وافته المنية في المهجر، وإلى المجتمع والبناء العراقي الشامخ الذي تصدع لما عاناه من عاديات الزمن.. أنحني انحناءة خشوع وإكبار وإنني لواثق من عودته يوماً إلى سابق مجده؛ وليس غداً لناظره ببعيد .

وأخيراً أهدي جهدي المتواضع هذا؛ لأهلي وأقاربي وأصدقائي ومرضاي وأساتذتي المنتجبين ممن أسهموا بوصولي إلى ما وصلت إليه، وإلى زملائي وتلامذتي، وأقدم هذه المذكرات كوثيقة وشهادة لفترة قصيرة من عمر التاريخ؛ ذلك الزمن الذي كان بعيداً عن الاستقرار في بلدنا الحبيب العراق .

شكر وتقدير

لايسعني بعد الانتهاء من وضع هذا الكتاب بشكله النهائي الا ان أتقدم بجزيل الشكر والامتنان الى كل من أبدى يد العون والمساعدة .
ومن بينهم السيد محمد الساكني من المجمع الثقافي في (أبوظبي) والسيد بدر ثاني من تلفزيون أبوظبي الذي ساعدني بعض الصور المرفقة الى الكاتب القدير السيد عدنان حسين لمراجعته جزاء من هذا الجهد والى الاخ الكريم الاستاذ شامل النهر لالقاء النظرة النهائية عليه .

وفي الختام لا انسى جهد الأخ الأستاذ عزيز الجصاني الذي لولا مساعدته لما ظهر هذا الكتاب .

الأستاذ الدكتور

فرحان باقر

2008/06/01

وبإطلالة الطبعة الثانية والتي احتوت على إضافات وتنقيحات جديدة وكثيرة أتقدم بجزيل الشكر والامتنان للشاعر الاستاذ / أرشد توفيق ، سفير جمهورية العراق في دولة الامارات العربية المتحدة لجهده المتميز في إعادة النظر فيه من ألفه الى يائه ووضعه بصورته النهائية الحالية.

فرحان باقر

2012 - 5 - 20

تقديم

حينما شرفني أستاذي الدكتور فرحان بالطلب بكتابة تقديم لكتابه ((حكيم الحكام)) شعرت بالاحراج . لأني لا أجرأ ان أرد له طلباً ولا أجرأ ان أكتب عن العلم الخفاق في سماء الطب في العراق الحديث ، لاني أخشى أن لا أفيه حقه . ولكنني امتثلت لطلبه مع يقيني بأني لن أوفيه حقه الذي يجب .

التحقت بدراستي في الكلية الطبية في أول الستينات وكنت وزملائي ننشد معرفة كل شي عن اساتذتنا ومن منهم في الصدارة والقيادة والريادة العلمية. فكان تارنت البريطاني في الفيزياء وروزبيك الهولندي في الكيمياء وصادق الهلالي في الفسلجة وهينس البريطاني في الطب وأحمد عزت القيسي في الطب العدلي وكمال السامرائي في النسائية وعبداللطيف البدري في الجراحة ومحمود الجليلي في الباطنية وغيرهم الكثير من الاساتذة الاجلاء من استحوذوا على اعجاب الطلبة . وعندما حان وقت التدريب السريري في السنوات الثلاث الأخيرة في الكلية تعرفت عن كثب على الأستاذ فرحان . فقد كان والاستاذ مهدي مرتضى مسؤولين عن الردهة الأولى في المستشفى الجمهوري ، وبعد التخرج التحقت بالاقامة الدورية في المستشفى الجمهوري وكان نصيبي الردهة السادسة . كنا نحن الأطباء المقيمين بعد كل يوم حافل بالعمل والخبرة لنتحدث كل منا على تجربته في ذلك اليوم . وكان زملاؤنا في الردهة الأولى يتحفوننا بتجربتهم الغنية مع الأستاذ فرحان . كان للاستاذ فرحان صدى خاص ومنزله فريدة في قلوبنا نحن جميعًا . لقد كان طبيبًا نطاسيًا ومعلمًا موهوبًا يحب ان يهب عمله لكل من حوله ، يقدس المريض الذي

هو محور حياته . يحب التنظيم والنظام والالتـزام بالوقـت ، وكـذلك التجديد المستمر وتطبيق ما استجد في علم الطب في العالم المتقدم .

صدرت في الستينات طبعة جديدة لكتاب الطب الباطني لمؤلفه ديفدسـن الذي كان يرافقنا جميعا طلبة وأطباء , شعرنا بالفخر في حينهـا عنـدما قرأنا فيه (بأن هنالك مراكز طبية قليلة في العالم قد استحدثت عيـادات خاصة لمرضى السكر ورعاية المصابين به) لقد كانـت مـن أوائـل العيادات في الوطن العربي أن لم تكن الأولى وكان شعورنا نحن الأطباء المقيمون في صباح كل يوم خميس على حد ما أذكر مصحوبًا بـالخوف والترقب اذ ان ذلك اليوم هو يوم ندوة الوفيات حيث يقدم كل طبيب مقيم امام الاساتذة حالات الوفيات التي حصلت في ردهته ويبدأ النقـاش بـل المحاكمة العلمية الدقيقة وكان الاستاذ فرحان يصول ويجول فيها , وهو الذي استحدثها في العراق وفي احدى الندوات عندما ناقشته في حالة وفاة بجلطة قلبية طلب مني بعد الانتهاء من النقاش أن احاول أن اسـجل لـه التغيرات التي تحدث في تخطيط القلب عند المرض خلال فحص الجهد , وكان حظي كبيرًا حين تمكنت من تحقيق ذلك في اليوم التالي وقدمت له وبأعتزاز لوحة كاملة فيها نماذج من تخطيط القلب الطبيعي لمريض قلب وبجانبه نماذج من التغيرات الحادة بعد اجراء فحص الجهد التي اظهرت الافقار (قلة ورود الدم) القلبي واستخدم تلك اللوحة لتدريس التغيـرات التي تنذر بالاصابة بالجلطة القلبية . ولازلت احتفظ بنسخة منهـا حتـى الآن .

كان للسنين التي قضيناها بعد التخرج مباشرة كمعيد في الفسيولوجي أثر بالغ في رغبته في البحث العلمي العميق وربط العلوم السريريه بـالعلوم الطبية الاساسية خلال عمله الطبي . ومن ذلك اهتمامه بالجهاز التنفسـي

وأمراضه , حيث استحدث مختبر الفحوصات التنفسية السريرية في المستشفى والذي كان مثالاً لهذه العلاقة التطبيقية بين العلمين السريري والأساسي.

كان الرائد في استحداث الندوة السريرية الباثلوجية CPC في المستشفى الجمهوري ، وهو أول من بدأ بما يسمى بالدورة السريرية الكبرى Grand Round حيث كانت تناقش العديد من الحالات المهمة والنادرة التي تواجه الأطباء المعالجين خلال الأسبوع والتي تحتاج الى استشارة جماعية أو إنها حالات نادرة يتوجب اطلاع الجميع عليها .

ومن المشهود له بالريادة أيضًا هو تصميمه على تثبيت دستور عراقي للأدوية عملاً بما هو موجود في كل العالم المتقدم . فقد صدر دستور الأدوية العراقي تحت إشرافه في الخمسينات والستينات . وكان من أوائل الذين استخدموا الزرع المختبري في حالات الالتهاب وعدم الاعتماد على تقييم الحالة السريرية فقط في علاج الحالات الالتهابية .

في الستينات وخلال وباء الكوليرا كان له السبق في تنظيم الخدمات اللازمة للتعامل مع المرضى والمصابين وفي السبعينات حينما أصيب الكثير من العراقيين بالتسمم بالزئبق كان من الرواد الذين قدموا خدمات عملية وبرامج للتعامل مع الحدث بأفضل أسلوب ناجح .

ساهم مساهمات متميزة في الجمعية الطبية العراقية في الستينات من القرن الماضي حيث إن له الفضل في بقائها جمعية طبية علمية مستقلة عن الجو السياسي العارم في نقابة ذوي المهن الطبية ، واستمرت في نشاطها العلمي المهني لسنوات طوال بعد ذلك .

تميز في المجال البحثي كتميزه في المجالات الاخرى ، فقد نشر نتاج بحوثه القيمة في الخمسينات في أفضل المجلات العالمية والمحلية . ومن الجدير بالذكر أن القول بأنه الوحيد الذي نشر له بحث في مجلة "علوم " الأمريكية الذائعة الصيت من الباحثين العراقيين .

وفي مجال الخدمات الطبية في العيادات الخاصة كان له قصب السبق في إرساء قيم جديدة على المجتمع الطبي العراقي في الممارسة الطبية غير الحكومية ، فلقد كان الاول في استحداث اسلوب تحديد عدد المرضى المراجعين في العيادة ، حيث كان المعمول به لدى الجميع فحص كل مراجع مما له نتائج لا تخلو من خطورة على صحة المريض وعلى صحة الطبيب نفسه بسبب الجهد المتزايد . وكذلك استحدث نظام زيارة المريض لعيادته بموعد مسبق كما هو معمول به في الدول المتقدمة ولم تكن مراجعته مزاجية عندما يرغب المريض . بالاضافة الى تخصيص يوم عطلة إضافي للعيادة غير العطلة الاسبوعية والرسمية في الوقت الذي

كان عــدد كـبـــيــر مــن الأطــبـاء يـطـــبـبـون الـمــرضى خــلال تــلك الـعـطــل . وبـذا وفـــر لــنـــفـــسه الـوقــت للــبـحــث والاســتــزادة مــن الــعــلم وأداء بــعــض الــواجـبات العائــلــية والاجــتــماعــية .

ولكن هذه الحياة الطبية المفعمة بالإبداع والتطوير والتميز لم تقابل بما يستحق إذ أنه أحيل الى التقاعد مع أعلام الطب وحاملي رايته الخفاقة في عــام 1979 مـــما أحــدث انــتــكاسة لــيس لها مــثــيــل في تــاريخ العـــراق الحـــديـــث ليس في مجال الطب فحسب بل انعكست على كل آفاق المجتمع . وكانت خسارة لا تعــوض عندما فــقــد العـــراق هذه الكوكبة التي تصل الى الخــمـــسيـــن أســتاذاً من خـــيـــرة من أنجـــب العـــراق وفي قـــمة عــطائهم .

وبعد هــول الصدمة وبعد الاستقرار دعته عدة جهات طبية وأكاديمية في الوطن العربي وخارجه ليساهم في قيادة مؤسسات أكاديمية ومهنية عديدة ، ولكـــنه استـــقـــر ما بـــين الولايات المتـــحدة الامريكية ودولة الامارات الشــقـــيــقة .

وحــيــنــما أصبح في عـــمـــر يــتــوجــب فـــيه الـــراحــة والاســـتــمــتـــاع بــمـــا حـــقــــقه مــن نجاحات لم يتوقف مطلقــاً وترى في كل يوم له تجديدًا وبين حين وآخر له ما يقــدمه من نشاط علمي ومهني يــبهــر الزملاء والــطــلـــبة ، وقــد آلى على نفسه أن يــبقى مثالًا للنــشاط والحــيــوية في المجالات العلــمية والاجــتــماعية وشــعلة وهــاجة تــنــيــر درب الآخـــرين .

فـــفي الولايات الـــمـــتحـــدة ومع نـــفـــر مـــن الـــخـــيـــريـــن مـــن زملائـــه الأطـــباء في كاليفورنيا عام 1997 عرض فكرة جمع

شمل الأطباء العراقيين في أميركا لتقوية ارتباطهم بعضهم وبالوطن الأم وتقديم ما يمكن من الخدمات والاستشارات للزملاء في العراق في مجال التعليم الطبي والخدمات الصحية.
ولولا كونه فرحان باقر وإجلاله من قبل الجميع لما تمكن من جمع الأطباء بالشكل الذي شمل حتى المتضادين منهم .

واستحدثوا في عام 1998 جمعية خريجي الكليات الطبية العراقية في اميركا I.M.C.A وذكر الاستاذ محمود ثامر بأن " الجمعية لم تكن تقوم لولا أفكار وجهود وصمود الاستاذ فرحان " . وبعدها تطورت في عام 2000 الى مدى أوسع لتصبح الجميعة العراقية للعلوم الطبية I.M.S.A وتضم كل العراقيين العاملين في الميادين الطبية في الولايات المتحدة والتي لا زالت تزاول نشاطها وجمعها للعاملين في المجال الطبي في الولايات المتحدة .

أذكر اننا التقينا في دبي عند منتصف شهر مارس 2003 وكان قد جاء الى أبو ظبي . وكنت قد هيأت له مع زميل لي بطلب برامج زيارة لست مستشفيات أهلية في دبي كي نطلع عليها ونتفق على بلورة أفكار للعمل على فتح مستشفى ذي مستوى عال في العراق يليق بما يستحقه العراق العزيز بعد سقوط النظام في العراق . لقد كان أكثرنا نشاطاً وحيوية ونقاشاً مع المسؤولين . وكانت

حيويته وتطلعاته دافعاً كبيرًا لنا على المثابرة والتصميم .

وبين يديك أيها القارئ الكريم كتاب " حكيم الحكام " الذي أحسن المؤلف الاستاذ فرحان ، في اختيار عنوانه ، والذي يعبر بحق عما كان عليه . وصفة حكيم الحكام هذه ليست بمحتواها جديدة على تراثنا الطبي ، فلقد تصفحت بعضاً من هذا التراث فوجدت أن عددًا من أساطين الطب قد حمل لقباً مشابهاً مثل ابن زهر الذي لقب " طبيب السلاطين " في العهد الأندلسي ، والرازي " طبيب الخلفاء " في العهد العباسي .

وثق المؤلف في كتابه القيم هذا تجاربه الطبية في الرعاية المهنية لأربعة من حكام العراق خلال عقود أربعة . ومن خلال هذه الصلة المباشرة بالحكام وبالاحداث المحيطة والتي خبرها عن قرب ، وثق ما مر به العراق من أحداث سياسية خلال تلك الحقبة في تاريخه الحديث ، من خلال منظاره الطبي المهني المتجرد ، مشفوعًا أحيانًا بتحليلات متوازنة واضحة لما كان يراه .

نرى في سرده المهني لما مر به خلال رعايته الطبية للحكام ، وفي سرده التاريخي للحوادث التي عاصرها ، وأنه اتصف بالموضوعية والدقة والالتزام بالنهج المتوازن والذي لم يتلون بالتيارات السياسية .

ويظهر جلياً مما ذكره المؤلف ومما عرف عنه خلال سيرته المهنية ، أنه في علاقته الطبية والشخصية مع الحكام لم يحاب أو يتنازل أو يتملق وانما كان يصرح بما كان يعتقد أنه الصواب . وهذا ما ساهم في كسبه ثقة وتقدير الحكام .

وكتاب " حكيم الحكام " إضافة مهمة للمكتبة العربية والعراقية تفيد الأطباء والمؤرخين كمصدر تجربة وتوثيق .

وفي الختام أقول أن مسيرة حكيم الحكام ، الأستاذ فرحان باقر ، اتصفت بالريادة الطبية والأكاديمية وخدمة المجتمع بكل ما يستطيع مدعومة بالمواقف الوطنية ابتداء من تطوعه للدفاع عن أرض العرب في فلسطين ، الى التميز في خدمة ورعاية الطب والمرضى في عموم البلاد وإرساء قواعد طبية رائدة والاستمرار في الإبداع . فهو بحق مثل صالح للطبيب والمربي والقيادي الطبي في العراق بل في الوطن العربي كله . وهو ليس فقط " حكيم الحكام " بل حكيم الشعب وحكامه .

أطال الله في عمره بصحة وعافية

الاستاذ الدكتور عبد الهادي الخليلي

استاذ الجملة العصبية – جامعة بغداد

المستشار الطبي في السفارة العراقية – واشنطن

2 حزيران 2008

المقدمة

بعد تردد طويل تجاوز عدة سنين، وبعد أن تركت بلدي العراق في تموز سنة 1981م ؛ استقر الرأي في أن أدوّن بعض ملاحظاتي لفترة قصيرة من عمر البشر - إذا ما قورنت بعمر التاريخ – لأهميتها ولموقعي الخاص أثناء تلك الفترة ولما حدث فيها من أحداث مهمة أملت علي مسؤولية أدبية بتدوين ما أتمكن من ذلك ، وتسمح به الظروف والأخلاقيات المهنية محتفظاً بجزءٍ ليس بالقليل كأسرار مهنية مقدسة ، لقد رفضت وامتنعت بأدب عن الاستجابة لأكثر من جهة أو صديق أو أديب أو كاتب ؛ وأحياناً بإغراءات من الكتابة عن تلك الفترة ، وقد يكون ذلك لعدم تمكني من اختراق "حاجز الخوف" أو الوصول إلى درجة العبور في " سلّم الشجاعة " أو لعوامل إضافية لما تقدم .

لقد عاصرت خلال عمري المهني الذي جاوز ستة عقود أحداثاً جساماً والتي أثرت تأثيراً عميقاً في كثيرٍ من نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ؛ لا في القطر العراقي فحسب بل في المنطقة كلها، وربما تعدت التأثيرات إلى خارج حدود المنطقة الإقليمية.

لقد كان لي شرف تقديم الخدمات الطبية لمجاميع واسعة وشرائح مختلفة اجتماعياً واقتصادياً من أقصى شمال القطر إلى أقصى جنوبه ، من الفقير والعامل ورجال الدين الى أغنى أغنيائه واصحاب المقامات ، ولعل من أبرز الذين عالجتهم هم أربعة رؤساء للعراق خلال العهد الجمهوري ، وحصلت على شرف المشاركة في طبابة اثنين من مراجع الحوزة العلمية في النجف الأشرف : السيد محسن الحكيم والسيد أبو القاسم الخوئي "طاب ثراهما"، ونائب الرئيس الأستاذ طه محي الدين ، ووزراء ورؤساء

للوزارات السابقة ، ورموز للزعامات الكوردية ، وخمسة من رؤساء الجامعة وأكثر رموز السلطة في المسؤولية والسادة عزت الدوري و ميشيل عفلق و شبلي العيسمي ، والعديد من فئات الشعب الأخرى ممن أكن لهم الاحترام ، وقد عاملت الجميع بنفس المستوى المهني بصرف النظر عن موقعه وحالته الاقتصادية . وبادلني أكثرهم الاحترام والتقدير.
انني لا أروم برسالتي هذه ؛ البوح أو نشر أسرار طبية ومهنية أحترمها بل وأقدسها – وقد امتنعت عن الإفضاء ولو بشيء بسيط لجهة ما تصديقاً لهذه القدسية ، وقد أضطر أحياناً ، في هذه الرسالة ، إلى التطرق للحديث من طرف بعيد من الجانب المهني كي تكتمل الحلقة ويتمكن القارئ من استيعاب ما فيها .
لقد وقفت لبعض الوقت قبل عنونة هذا الكتاب ، حيث كنت ميالاً لتسميته "حكيم الحكّام"، و"الحكيم" كلمة لها موقع ورنين خاص في مسامعي ، حيث لا يزال يسمى الطبيب حكيماً في بعض الأمصار، وما للعلاقة والتشابك ما بين الطبابة والحكمة . وقد حاولت تقديم الحكمة إضافة للطبابة كلما وسع المجال لذلك ، وقد أفلحت في الكثير وفشلت في أحيان أخرى ، ولعلي لم أصل درجة المرجعية من الحكمة في تلك الحالات ، ورست قناعتي أن أسميه "حكيم الحكّام" ولا بد لي أن أستميح القارئ الكريم عذراً لافتقار هذه الرسالة الى أسلوب أدبي رفيع ، ولغوي رصين ، فلم أكن كاتباً وهذه هي أولى جولاتي وقد تكون الأخيرة . وقد يجد القارئ تداخلاً أو انعداماً للتسلسلية الزمنية في أكثر من مكان ، والقفز إلى موقع والرجوع إلى الخلف حيث كان أحد أسباب ذلك ؛ هو بعثرة مراجعي وأوراقي بين أكثر من مدينة وفي ثلاث قارات أملت عليّ ظروفٌ قهرية الإقامةَ فيها .

وأخيراً آمل أن أكون قد قدمت للبعض ما يثير، ولآخرين شيئاً من السلوى ، ولزملائي في المهنة حصيلة تجارب طويلة ليأخذوا منها ما يفيد ، وأن تأخذ هذه المذكرات زاوية صغيرة من التاريخ الحديث ، وأرجو أن أكون قد أجبت وأوفيت ما طالبني به الكثيرون بتدوين مذكراتي هذه .

ومن الواجب التنويه أن السبب لطبعة ثانية هو لكثرة الطلب عليه ، ليس من العراق فحسب ، واصلاح بعض الأخطاء ووضع بعض الاحداث في مواقعها التاريخية الصحيحة .

الفصل الأول

النشـــأة

ولدت في مدينة الكاظمية سنة 1926م ، من أبوين وأجـداد عـراقيين ، يرجع نسبهم إلى قبيلة خفاجة ، حيث هاجر أحد الأسـلاف مـن مدينـة النجف الأشرف ليستقر في مدينة الكاظمية .

التحقت بمدرسة المفيد الابتدائية وكنت بعمر يقل عن السن القانوني بسنة . تميزت تلك الفترة بالأستقرار وكنت من المتقدمين بالدراسة ، وحظيت برعاية عائلية جيدة كان لوالدتي رحمها الله الدور الكبير فيها.

انتقلت بعدها إلى مدرسة الكاظمية المتوسطة للبنين ، وكنت كـذلك فـي المقدمة دراسياً وخصوصاً في الرياضيات ، وحدث أن تقدمت يوماً أثناء دراستي في الصف الثاني المتوسط بجواب إلى أحد المكملين من الصف الثالث وبنفس المدرسة ، في درس الرياضيات الذي سبب لـي توبيخـاً شفهيًا من أستاذي الجليل محمد علي راجي والذي أكن له الكثيـر مـن الاحترام .

انتسبت إلى المدرسة الثانوية المركزية في الفرع العلمي فـي الرصـافة لعدم وجود مدرسة ثانوية في الكاظمية ، وكنت متقدماً علـى زملائـي دراسياً وظهر آنذاك تفوقي في الرياضيات وضعف في درس قواعد اللغة العربية مع الأسف الشديد ، ورغم ذلك جاء مجموعي فـي البكالوريـا متجاوزاً 82% ولحسن الحظ فقد كان القبول فـي تلـك السـنة حسـب الدرجات والكفاءة ؛ وكان معدلي في دروس الرياضيات يقـارب 99% فكنت أول المقبولين في كلية الهندسة ، إضافة لقبولي في كليـة الطـب ببغداد وعن لواء بغداد ، وقد اعترتني الحيرة إلى أي كليـة سـألتحق ؛ الهندسة أم الطب ، ولم يستقر لي قرار، وأخيرا أخذت بنصـيحة أخـي

المرحوم الدكتور عباس باقر بدخول كلية الطب حيث كان قد تخرج لتوه منها، وجاءت النصيحة الثانية من مرشدي الثاني وصديقي وأستاذي ومريضي بعدئذ العلامة المرحوم الدكتور عبد الجبار عبد الله حيث كنت متأثراً بدراسته وخلقه وعلمه في مجال الفيزياء وحصوله على أعلى الدرجات في هذا الموضوع ؛ وعلى الرغم من ذلك فقد نصحني بدخول كلية الطب حيث أن مستقبلها أكثر ضماناً وهي الأفضل ، وهكذا كان ، وعلى نفس السليقة والخطوات والجدية أكملت السنوات الست في كلية الطب .

التيارات السياسية

كانت تعصف بالجامعة وطلابها حينذاك تيارات سياسية مختلفة ومتضاربة بين يسار متطرف وآخر معتدل ، ومثلهما من الاتجاه القومي ، واستمرت الحالة تتطور كل سنة وربما كان العدد الأكبر من طلاب الجامعة من المستقلين ، " الشريحة الصامتة وهي كالمعتاد الأكبر حجماً في كل المجتمعات ومنها المجتمع الجامعي " . وقد كنت وبقيت أحد أفراد هذه الشريحة الكبيرة ، وكان تقلب بعض الزملاء من جهة إلى أخرى ومن طرف إلى آخر يثير اشمئزازي ويساعدني على البقاء في الموقع الذي أنا فيه وما اعتقدت به على الدوام .

كان ترتيبي في التخرج الثالث ، وكانت أعلى درجاتي في الأمراض النسائية والولادة .

الخدمة العسكرية

وقد حدث في المنطقة في ذلك الوقت زلزال كبير في 15 مايس (أيار) 1948م ؛ وكان هذا التاريخ هو الأكثر شؤماً في المنطقة وعلى الأمة العربية جمعاء بظهور وإنشاء إسرائيل واغتصاب فلسطين ، وتدافعت

الجموع للتطوع والحرب وكنت أحدهم يدفعني الحماس الوطني الشاب الذي لم تلوثه السياسة أو الأهواء، وكان لي عذر قانوني بعدم الالتحاق في الطبابة العسكرية لأن الحد الأدنى من حيث الوزن للقبول هو 50 كلغم بينما كان وزني آنذاك 48 كلغم ، وزاد إصراري للذهاب إلى الجبهة رغم ذلك ، وحدث لي أثناء التدريب على الفروسية حادث أصبت على أثره بكسرٍ صغير في فقرات الرقبة بعد سقوطي عن الفرس التي كنت أتدرب عليها ؛ وقد سببَّ لي هذا الحادث عجزاً وألماً بين الفينة والأخرى - ولحد الوقت الحالي .

وبانتهاء فترة الشهرين في التدريب العسكري أو الدورة العسكرية ؛ ثم منح الخريجين مرتبة رئيس طبيب وبدأ التنافس على التعيينات ، وقد ذكر أن التعيين سيكون على طريقة القرعة - ولا أعتقد ولا يعتقد آخرون بصحة هذه المقولة – وقد أراد السيد الوالد رحمه الله التدخل في تنسيبي في مكان مريح فرفضت ذلك وتجنبت أي تدخل ، حيث أن قدسية الموضوع والقضية الفلسطينية تسمو عندي على حياتي الشخصية والراحة البدنية ، وهذه هفوة أخرى من نقاء شباب آمنوا بقضية لم يكن التعامل معها حقيقياً أو صادقاً منذ ذلك الحين .

وحدث التنافس على التنسيب ؛ فمنهم من استأثر ببغداد في تعيينه وآخرون في القاعدة في نابلس أو المفرق ، وكان نصيبي تنسيبي كطبيب في مستشفى ميداني على الجبهة وفي جنين بالذات ؛ المدينة التي تشرف الجيش العراقي بكسب معركتها قبل ما يقل عن الشهر من تاريخ وصولي إليها ، وبعد فترة قصيرة من وجودي هناك حدث احتكاك وسوء تفاهم بيني وبين مدير المستشفى ؛ فطلبت من مدير الأمور الطبية والذي تربطنا به صلة صداقة – نقلي إلى طبابة أحد الأفواج، فسألني : هل

تعرف معنى طلبك ، وأجبت بالإيجاب ، وإذا به يقول : نعم ؛ إنه بالواقع أقرب مركز طبي إلى خط النار .

وانتقلت إلى ذلك المركز بعلمي وقبولي ، ومضت عليَّ أشهر رتيبة مملة في خيمة صغيرة هناك ، وحدث أن انقلبت سيارة الجيب التي كان يقودها صديقنا الرائد عبد الرحمن المفتي عند ذهابنا إلى قلعة جنين ، وجرح المفتي في هذا الحادث ، فأسعفته أنا وصديق لي الدكتور عبد الرحمن عبد الغني ونقلناه إلى المستشفى لإجراء ما يلزم ، وعشنا تلك الأشهر بانتظار المجهول وبترديد "ماكو أوامر" - ماكو باللهجة العراقية تعني لا يوجد – وكان طبيب الوحدات العسكرية محط احترام وتقدير الجميع ، قريب إلى آمره وهو المسؤول عن صحة وغذاء المركز بكامله ، وبسبب هذا القرب قد يطلع على معلومات خاصة أو أمور سرية ، وفي إحدى الليالي أخبرنا آمر الفوج المقدم الركن محمد علي كاظم آمر فوج "موسى الكاظم" - وهو أول وحدات الجيش العراقي – بوجود حركة هجومية من قبل جحفلنا بإمرة العقيد صالح زكي توفيق - وهو تركماني – معروف بوطنية صادقة ومميزة على الصهاينة ، وهي حركة سرية ستحدث دون معرفة القيادة ؛ بل ووضع القيادة تحت الأمر الواقع كانعكاس للتململ وعدم الرضا وتخفيف الضغط عن القوات المصرية التي كانت تُدَكُّ ليل نهار على مسمع ومرأى القوات العربية المتعددة الأطراف ، وتم تحديد ساعة الصفر ووضِعَت سيارتي للإسعاف في المقدمة وبموجة الحماس على خلاف ما تعلمناه في الدورة العسكرية والتعبئة بأن سيارة الإسعاف يجب أن تكون في آخر الرتل ، ولم تنفع ملاحظاتي بهذا الشأن ، وخوفاً من اتهامي بالجبن كانت سيارة الإسعاف في المكان الذي نسبه معاون الآمر - أي في المقدمة – ، وعندما طلبت سلاحاً خاصاً بي لم يكن ذلك

متوفراً وعطف على المضمد الذي يرافقني وأعطاني مسدسه الخاص لعوادي الزمن .

وبعد مضي سويعات على تلك الترتيبات ؛ تسربت المعلومات إلى القيادة ، وأجهضت الحركة وأوقف قادتها ومنهم المرحوم الرئيس الدكتور مصطفى النعمة وآمر فوج ا لمدفعية للجحفل ، وعدنا إلى تلك الحياة الرتيبة مرة أخرى ، وبالنسبة لي فقد انهمكت في وقت الفراغ بمعالجة الفلسطينيين المنكوبين بخدمات طبية ، وفتحت عيادة طبية مجانية بأحد بيوت قرية "برقين" وصرفت لهم الأدوية من الوحدة التي أعمل بها ، واستمرت اللعبة ؛ اجتماعات ووقف لإطلاق النار ، وهدنة تتبعها أخرى .. إلخ، إلى أن أقر "الحكماء والرؤساء" بالواقع المر وانسحب الجيش في نهاية سنة 1949م تحت سخط وحنق الجماهير العربية ، وحين عدت للعراق كان مقر فوجي في مدينة البصرة ، وقاربت مدة خدمتي العسكرية على الانتهاء فاستدعاني قائد الفرقة مقدماً لي الاغراءات للاستمرار في الطبابة العسكرية ، وأجبته شاكراً بإبداء رغبتي بمواصلة الدراسة الطبية العلمية .

بداية الطريق في المهنة

بعد نهاية خدمتي العسكرية ؛ بدأت صفحة جديدة وهي التعيينات ، ولم يكن للحق والكفاءة موضع قدم في حينه ، علماً بأني كنت متقدماً في دورتي وكانت رغبتي ملحة بوضع مستقبلي في الطب الباطني مع العلم أن أستاذ الجراحة الدكتور روجرز Rogers طلبني لأكثر من مرة إلى الكلية الطبية لأكون أحد أعضاء فريقه الجديد للجراحة ؛ وهو فرع يتكاثر الطلبة عليه وتعلو أسهمه على فرعي الذي أردته ـ الطب الباطني – إلا إنني أردت أن أنفذ رغبتي الشخصية الملحة وأبقى متعلقاً بهذا الفرع ،

وقد حاولت دون تدخل أو واسطة مقابلة أعلى مسؤول فـــي الموضـــوع "رئيس الدار وشيخ الأطباء" ، ولكنه لم يمنحني المجال لذلك وأخيراً سمح بالتكلم معي عبر التلفون بدائرة سكرتيره وقلت له إن كفاءتي في التخرج ورغبتي في التخصص سيؤديان إلى أداء أفضل وأحسن إذا ما أتيحت لي هذه الفرصة، ولي من تسلسل الدرجات ما يؤهلني لذلك ؛ فأجابني علـــى غير المتوقع ومن خلال التلفون : "ابني : ليس هنـــاك مكـــان للرغبـــة والكفاءة !!" .

وقد اضطررت حينئذ إلى الانتماء لشـــعبة علـــوم وظـــائف الأعضـــاء "الفسيولوجي" على مضض – كمعيد لمساعدة طلبة الصفوف الثانيـــة والثالثة ، ولم يكن فرق العمر بيني وبين بعض الطلاب أكثر من ســـنتين أو ثلاثة والتصق بي لقب أستاذ منذ ذلك الحين ، وبقيت فـــي الجامعـــة أصارع الرغبة القديمة بالطب الباطني من خلال ممارسة الطب السريري ، وذهبت متطوعاً إلى مستشفى الكرخ للأمراض الصـــدرية "مستشـــفى العزل للدرن" للتدريب علـــى زرق الأبـــر الهوائيـــة بجـــوف الصـــدر "نيوموتوركس PNEUMOTHORAX" والتي كانت من الوسائل القليلة المتوفرة لعلاج هذه الآفة اللعينة والمنتشرة ، وكانت حصيلتي من هذا الاشتغال أن أصبت بآفة الدرن الأولى فانسحبت بهدوء إلى خطوط أخـــرى ، بقيـــت تواقاً إلى الطب السريري وعينت بعدها كأول مقيم مع أستاذي الـــدكتور كمال السامرائي في مستشفاه الخاص للأمراض النسائية والولادة وهـــو فرع يمتاز عن الطب الباطني برفاه اقتصـــادي اكثـــر ســـعة ، وكـــان المستشفى لطبقة مترفة من الناس ، وكانت علاقتي بالســـامرائي مهنيـــة سلسة وجيدة ، ومكثت شهوراً وفي أعماقي الرغبة التـــي لـــم تغيرهـــا الأحداث وهي التخصص بالطب الباطني ، وكتحقيق مرحلي لهذه الرغبة

فتحت عيادة خاصة في الكاظمية بدوام مسائي بعد اشتغالي في الكلية الطبية وكانت ناجحة إلى حد كبير .

السفر إلى امريكا – التدريب والاختصاص

ولم تعدم الظروف من منحي فرصة ذهبية حيث جاء إلى بغداد أحد الأطباء الأميركان ليقابل من ارتأى عارضاً عليهم العمل في أماكن مرموقة في الولايات المتحدة ، وكنت أحد هؤلاء المحظوظين الذين لم يتعدى عددهم أصابع اليد بزمالة "فولبرايت" Fullbright، فسافرت إلى أميركا وعينت في مستشفى البلدية في العاصمة واشنطن ؛ وكان من ضمن أكبر عشرة مستشفيات في أميركا ، واعتبرت مستقيلاً من وزارة الصحة العراقية بدون إجازة دراسية أو بعثة أو أي امتيازات أخرى .

كان المستشفى الذي عينت به معملاً دائم النشاط والحركة لتدريب أطباء من مختلف البلدان وتشرف عليه ثلاث جامعات هي : جورج تاون ، جورج واشنطن ، وجامعة هوارد للملونين ، وكان من نصيبي جامعة جورج تاون لحسن الحظ وهو الأجود والارفع سمعة بين الثلاثة ، كان ينقص هذا المستشفى التبرج والأثاث الجيد وما يجلب إليه النظر؛ فلا ألوان ولا مظاهر ثراء فيه ، وكانت الأشغال فيه مضنية وساعات العمل طويلة والمسؤوليات كبيرة بينما كانت الرواتب بغاية التواضع ، وفي الحقيقة لا يمكن تسميتها رواتب بل "هبات شرف–"HONORARY" ، وهي لا تتجاوز 60 دولاراً كل أسبوعين وتساوي عُشر ما تكسبه منظفة مطعم ، وهي لا تعادل ثمن شراء السجائر والشاي لمن يتناولهما ، ومن البديهي فقد وفر لنا المستشفى المسكن والمأكل ، ومرت الأشهر سريعة واكتسبت الكثير والعميق من الخبرة التي لا تقدر بثمن .

وانتهت السنة الأولى ؛ وعرض علي التجديد والاشتغال مع أحد العلماء الأفذاذ وهو عالم بارز في الأمراض الصدرية والباطنية وممن شارك في معالجة رئيس الولايات المتحدة الأميركية نيكسون وهو الاستاذ S.KATZ وكانت السنة الثانية أقل ضغوطاً وأكثر راحة ، واكتسبت الكثير في ممارسة الأمراض الصدرية والدرنية وقراءة الصور الشعاعية "السينية" ، وقد أعجب الأستاذ بممارستي واندفاعي ونشاطي وطلب مني أن أقوم بتدريب طلاب صفوف السنة النهائية وما قبلها ، ولم ينفع امتناعي وترددي من هذا الواجب إلا زيادة في إلحاحه حيث أذعنت بعدئذ تجاه إصراره وتشجيعه ، وقد استمر هذا الأستاذ الفاضل في تشجيعي وإسنادي وكان يهودياً غير متدين وغير ممارس لطقوس ديانته ، متزوجاً من سيدة مسيحية وعلى علم بانتماءاتي وجذوري العربية والإسلامية ، وكلفني بمشروع بحث يتضمن تجربة دواء مضاد حيوي جديد لعلاج ذات الرئة لشركة فايزر PFIZER ، وكان هذا مصدر إسناد مالي بسيط بالإضافة إلى قيمته العلمية الكبيرة ، واستمر بي الحال معه وأخبرته حول أهمية الحصول على شهادة علمية لقيمتها في بلدي العراق ، وقد حاول الرجل إقناعي بأن هذا الأمر لا أهمية له في أميركا وأن المهم هو التدريب والانتساب للمعهد الذي نتدرب فيه ، ووزن الرئيس الذي نشتغل معه ، ولم يلاق ذلك أي لين في رغبتي الملحة للحصول على شهادة مما حدا به إلى تسجيلي كطالب لما بعد التخرج ؛ في الوقت الذي ما أزال أمارس فيه واجبي كطبيب مقيم ، ومن المعروف أن المدة المقررة لدرجة الماجستير هي ثلاث سنوات ؛ وإحدى متطلباته إجادة لغة أجنبية ثانية ، وقد حاولت تعلم الفرنسية مساءً ، ولم أتمكن من ذلك لضيق الوقت وصعوبتها وتكلفتها ، ومدّ أستاذي يد المساعدة ثانية لي معتبراً لغتي الأم

"العربية" كلغة ثانية مقبولة حيث أن فيها ما يكفي من المراجع الطبية ، وتقدمت في نهاية السنة الثانية للامتحان وإكمال بحثي الذي نُشر بمشاركة أستاذي الجليل في إحدى المجلات الطبية الأميركية المرموقة ، وكنت الوحيد الذي حصل على درجة الماجستير من بين الزملاء الخمسة أو الستة ممن أوفدوا من العراق في تلك الزمالة .

كان وقت تدريب الطب الباطني يستغرق 3 سنوات في ذلك الحين ، وكان من المهم ؛ ومما يعطي الطالب الرصيد الكافي إذا أكمل السنة الثالثة كرئيس للمقيمين ، وقد حاولت في أماكن عدة لأجل ذلك وحصلت على هذا المنصب بتعييني في مستشفى مدينة نيويورك التابع لكلية نيويورك الطبية ، وكنت مسؤولاً عن تدريب 26 طبيباً مقيماً من مختلف جنسيات العالم ، وتعرضت خلال السنين الثلاث لجميع فروع الطب الباطني ، إلا أن هذا التعرض كان ضعيفاً في الأمراض العصبية ، ولكون العراق أحد بلدان الشرق الأوسط ممن يعطي أهمية كبرى للشهادة الإنجليزية ويعتقدون بجديتها وصلابتها وخصوصًا "M.R.C.P" عضو كلية الأطباء الملكية البريطانية ؛ شددت الرحال إلى بريطانيا العظمى وركزت على ملء وإكمال ما لم أتعرض له في الطب الباطني في أميركا وهي الأمراض العصبية ، ودخلت الامتحان بعد تسعة أشهر واجتزته والحمد لله .

كانت المغريات كثيرة ومكثفة في أميركا أثناء تواجدي هناك ؛ من أشغال مرموقة ، ودخل محترم ، ومعيشة كفاية ، و"بطاقة خضراء" تتبعها الجنسية التي يصبو إليها الكثيرون ، ولكن حب الوطن والتعلق العائلي غلب على كل المغريات ، لذلك رجعت إلى بلدي الحبيب يوم 16 أيلول سنة 1956م.

الفصل الثاني

بداية الطريق– بعد التخصص والرجوع من امريكا وبريطانيا

بدأت سجال المعركة المهنية وممارسة ما تعلمته ، وكنت ثالث عراقي يحصل على عضوية كلية الأطباء الملكية البريطانية بعد الأستاذ الدكتور محمود الجليلي والأستاذ الدكتور عبد الجبار العماري ؛ والواقع أن الثالث كان المرحوم الدكتور إبراهيم الحيالي الذي تأخرت عودته للعراق ، إلا أنه حين عاد آثر أن يشتغل في القطاع الخاص ، وقد أخذ الدكتور المرحوم عبد الأمير علاوي -وزير الصحة آنذاك – قراراً بتعييني في المستشفى الملكي والمستشفى التعليمي بكلية الطب .

لم تخلُ الأجواء من حساسيات وأخذ مواضع ومضايقة حق المرور لأعضاء شباب ودماء جديدة ، ولم يعقني ذلك من القيام بما أومن به وأتمكن منه بكل جهدي وطاقتي ، لقد كان الفارق كبيراً والفجوة واسعة بين ما رأيت في أميركا وبين ما رأيته في أكبر مستشفى في العراق وحاضنة طلاب كلية الطب الوحيدة "الكلية الطبية الملكية العراقية" .

نُسِبت في حينها إلى ردهة في قسم من المستشفى وشاركني في القسم الثاني أحد الزملاء وكنت أبدأ بالدروس السريرية بانتظام في أكثر أيام الأسبوع ، يتدرب معي مقيم ، وبمعية كل أخصائي مسؤول أربعة طلاب من السنة الأخيرة في كلية الطب ، وسرعان ما تحولت هذه الدورة اليومية التدريسية إلى ما يشبه المظاهرة ؛ حيث كان يحضرها ما بين 16–22 طالباً ولم يكن باستطاعتي منعهم أدبياً أو إدارياً ، ولم ترضِ هذه الحالة زملاء آخرين ، فنقلت بعدها دون سبب مكتوب إلى الردهة الأولى لأكون مسؤولاً عن نصفها ، وهي ردهة أصغر من السابقة بقليل ولكنها أكثر هدوءاً ، ولم تتأثر ظاهرة كثرة حضور الطلاب إلى دروسي .

قد يشاركني فيما سأقوله بعض المتابعين للتطور الطبي في كلية الطب والمستشفى الملكي ؛ لقد كانت فترة أواخر الخمسينات والستينات ؛ فترة تطور ملحوظ في الطب العراقي ، حين كان مزدهراً بوجود الأطباء والأساتذة القدامى - وأكثرهم من الأجانب من إنجليز وغيرهم – ومعهم مجموعة من أساتذة الطب العراقيين ومنهم : الجليلي والعماري والدهان والدملوجي في الطب الباطني ، يتبعهم الجيل الأكثر حداثة ومنهم : المرحوم بديع صبحية ، مهدي مرتضى ومحمود ثامر وفرحان باقر ، والرعيل الذي جاء بعدئذ ، ومما علق بذاكرتي عن تلك الأسماء العزيزة ؛ هي قضية تعيين الدكتور مهدي مرتضى ، فحين تقدم للتعيين يومها تردد رؤساء الردهات للاشتغال بمعيته ، ولم يكن لدي مانع لتبني موضوعه نظراً لمعرفتي بدرايته الطبية وخبرته العميقة أثناء تدريبه في أميركا ، وقد كان من دواعي الفخر والاعتزاز أن نكون بوحدة طبية واحدة إلى اليوم الأخير "يوم التقاعد" .

كانت بعض الممارسات مبكية مضحكة ، ومثيرة للسخرية ، فلم يكن هناك اهتمام أو عناية بداء السكر ، ولذلك فقد قمت بتأسيس عيادة لهذا المرض تفتح مرة في الأسبوع ، وقد جاوز عدد ملفات المرضى فيها عدة آلاف ، وكذلك كانت العيادة مكاناً لتدريب الطلاب ، وتكاثرت هذه العيادات بعدئذ ليتم تأسيس مثيلات لها في مستشفى اليرموك والمستنصرية والمحافظات العراقية كافة ، وعلى حد علمي أنه يوجد في بغداد في الوقت الحالي مركز لداء السكر ، وفي أكثر المحافظات العراقية .

وأصبحت الاجتماعات السريرية الأسبوعية ، منهلاً للعلم والاستمتاع ، يحضرها ويشارك بها الجميع ، وخصوصاً الطلاب والمقيمون في قسم الطب الباطني والهيئة التدريسية .

بدأتُ بعقد اجتماع حول "وفيات الأسبوع" Death Conference لأول مرة في الكلية الطبية ، ويتلخص ذلك في دراسة حالات وفيات الأسبوع المنصرم ، وبحث ما جرى وما كان يجب أن يجري للمرضى المتوفين ، وبحث أسباب الوفاة وإمكانية تلافيها مستقبلاً وتوجيه اللوم إلى المتسببين ولم يتعرضوا إلى عقوبات قانونية لحسن الحظ؛ كما هو متعارف عليه في أميركا .

كان اجتماع "وفيات الأسبوع" ناجحاً جداً ، ومحطة للعلم والتعلم ولي بالذات والنقد الذاتي ، ورغم ذلك فقد اشتكى منه بعض الزملاء القدامى بحجة أن الاجتماع قد يصل إلى الطعن في كفاءة وتعرية بعض الممارسين من الأطباء ، وكان العميد المرحوم الدكتور أحمد عزت القيسي من المؤازرين والمساندين لهذه الاجتماعات ، واستمرت القافلة العلمية الطبية في مسيرتها؛ فحدثت إنجازات ليست بالقليلة والتي سآتي على ذكرها كلما دعت الحاجة والضرورة .

ثورة 14 تموز

ليس بالإمكان أن يفصل المرء نفسه عما يدور في محيطه من أحداث ، ويبقى متقوقعاً في عمله وحياته الشخصية فقط ، فلقد زلزل العراق ـ بل والمنطقة بأسرها – بزلزال ثورة 14 تموز 1958م ، تلك الثورة التي أجد صعوبة في وضع صفة أو اسم مناسب لها بعد مشاهدتي وتعايشي لما آل إليه بلدي بعدئذ ، وقد طالت النهاية المأساوية الوحشية لأفراد العائلة المالكة أكثر زعماء الثورة ومسؤوليها بالطريقة المعروفة تاريخياً

، ومع ذلك استبشر الكثيرون بالجمهورية والعهد الجديد وانهيار العهد الملكي ، ولا ينكر أنه كان هناك اتجاه للإصلاح والتغيير في المجتمع العراقي ، وسأقيد نفسي بالنسبة لتدوين تلك المرحلة في المجال الطبي فقط بعيداً عن القضايا السياسية الشائكة . فقد كان دوري فعالاً في وزارة الصحة واللجان الطبية ، من خلال عملي كرئيس للجنة دستور الأدوية في وزارة الصحة، وعضويتي في لجنة تسجيل الأدوية لتقديم ما استجد من الأدوية في الطب الحديث ، وإلغاء بعضها الآخر مما مضى عليه الزمن وأكل الدهر عليه وشرب .

قادتني هذه اللجان والأشغال إلى طلب ملح من الدكتور نوري ميري عميد كلية الصيدلة وأحد أعضاء اللجان التي أمارس فيها أشغالي ، ومن تأثر بعمق شديد بأدائي العلمي وبعوز في كادره ، وهذا الطلب الملح يتعلق بتدريسي لعلم الأدوية "الفارماكولوجي" والصحة العامة في كلية الصيدلة ، وقد قبلت ذلك على مضض ؛ حيث قمت بتدريس هذه المادة لمدة فصلين كانت حصيلتها اختياري لإحدى طالباتي لتصبح قرينتي في المستقبل .

زيارة الاتحاد السوفيتي

وفي وقت مبكر بعد إنشاء الجمهورية العراقية ، رُشحت لتمثيل الطب الباطني بدعوة من الاتحاد السوفيتي - السابق - يصاحبني ممثل عن شعبة الجراحة هو الدكتور خالد القصاب والصيدلي محمود الأوقاتي ، وكانت العلاقة دافئة جداً مع الجهة الروسية حيث استمروا برفع الأنخاب

- حسب طريقتهم - تحية للشعب العراقي والزعيم عبد الكريم قاسم ووزير الصحة ووزير التجارة .. إلخ .

أتوقف هنا عند نكتة طريفة حدثت لنا ولا بد من التطرق إليهـا ؛ فعنـد وصولنا إلى موسكو في تلك الدعوة وبعد إعلام الجهات الروسية والاتفاق معهم على تحديد موعد وصولنا في "نهاية الأسبوع" ـ يوم الجمعة ــــ ، رأينا عكس ما توقعنا فلم نجد سجادة حمراء ولا من يرفع يده بتحية لنـا ولم يكن هنالك شخص بانتظارنا في المطار ، وعندما تكلمنا مع موظفـة الاستقبال في المطار قالت : إنكم لا يمكن أن تذهبوا للفنـدق ولا حتـى فندق المطار ، وأقصى ما يمكن أن أساعدكم به هو السماح لكم بالانتظار في قاعة استقبال المطار حتى الصباح ، أو ربما حتى صباح يوم الاثنين !!. وسبب هذه المفارقة التي حدثت أن المسؤولون السوفيت قد فهموا أن "نهاية الأسبوع" تعني يوم الأحد ، وهي العطلة الأعتيادية هنـاك وفـي أوربا ، وكان هناك عجوز يراقبنا عن كثب وأدرك المأزق الذي وقعنـا فيه والحيرة التي نمر بها ، وعدم تمكن موظفة الاستقبال من الحصـول على رقم السفارة العراقية ، فأخرج العحوز من جيبه دفتراً قديماً ممزقـاً بصفحات قليلة ووجد فيه رقم السفارة العراقية ، واتصلنا وكم كانت تلك اللحظة جميلة ومنقذة من وضع متأزم ، حين أجابنا على الطرف الآخـر من التلفون الأستاذ علي كاشف الغطاء مستشار السفارة حينذاك ، وجـاء الرجل إلى المطار واصطحبنا إلى دائرته حيث كان يعيش فيها ، ولم يكن فيها من الأسرّة ما يكفي فافترش بعضنا الأرض حتـى يـوم الاثنـين ، وعندها بدأت الحفلات والاستقبالات مما عوض مرارة استقبال الوصول.

لقد كانت المؤسسات الطبية وأنواع الأدوية في روسيا غير ما عهدناه في أميركا وبريطانيا من تطور وانفتاح ، وقد تتالى الخبراء والوفـود مـن هذين البلدين إلى العراق لممارسة الطبابة ، وقابلـه أيضـاً عـدد مـن الإيفادات إلى روسيا .

وعوداً على بدء أتذكر عيادتي الطبية الخاصة في تلك الأيام والتي كانت مزدحمة على الدوام ؛ يعمها القاصي والداني ، ولا يجد الكثيرون الفرصة للتسجيل بسبب تحديد المرضى بـ "12" مريضاً يومياً ، وضمن من عالجتهم آنذاك كانت عائلة الزعيم عبد الكريم قاسم ؛ شقيقته وزوجها عبد الجبار جواد "رحمه الله" قائد الفرقة الخامسة وزوجة أخ الزعيم وأفراد آخرين كانوا بغاية التواضع وليس لديهم طلبات أكثر من العناية الطبية . وكان اللواء المرحوم عبد الجبار جواد مصاباً بمرض القلب ، وطلب مني يومها بأدب جم - تقريراً طبياً - أنصح به بضرورة العلاج خارج العراق ، واعتذرت منه بأدب لأن الطبابة العسكرية هي مرجعه لذلك أو كلمة من الزعيم نفسه هو الطريق الأمثل ، ولم يكن في تلك الأيام قد وصل التقدم الذي نراه الآن في معالجة أمراض القلب ، وانتهى أمر اللواء عبد الجبار بإرساله إلى موسكو ليعالج في مستشفى كبار الشخصيات ، وحدث أن كنت في موسكو ومررت به فوجدته وقد وضعوا على صدره "الديدان الطبية" كعلاج لمنع تخثر الدم وعوضاً عن مادة الهيبارين والتي يستعملها العالم الغربي ، وتوافق وجودي مع وجود السياسي العراقي كامل الجادرجي رئيس الحزب الوطني الديمقراطي بنفس المصحة ، فزرته متمنياً له الشفاء وطيب الإقامة ، فقال على سبيل المزاح : أنظر يا دكتور كيف تعاملنا الشيوعية ! . حيث كان لكل منهما شقة فخمة التأثيث ملفتة للنظر ذات ثلاث غرف ، وأردف الجادرجي قائلاً : أهذه هي الاشتراكية أم الأرستقراطية ! .

مع الزعيم عبد الكريم قاسم

كان العراق في تلك الأيام يضج بمختلف التيارات والأحزاب ، وقد حاولت أن أبقى بعيداً عنها كما هو عهدي دائماً ، وباستمرارية الهرج

والمرج السياسي وعدم الاستقرار ؛ جاءت محاولة اغتيال الـزعيم عبـد الكريم قاسم في يوم 16 أكتوبر 1959م ، وكانت هذه أول فرصة لإسداء الخدمات الطبية لأول "حكّام" هذا الكتاب ، حيث جاءني نداء مستعجل من وزير الصحة ومن مسؤولي مستشفى دار السلام ـــــ حيث نُقل الزعيم ـــ أن احضر فوراً لفحص سيادة الزعيم ، فأسـرعت إليـه ووصـلت المستشفى وما كان مني إلاّ أن قفزت من سياج المستشفى حيـث كانـت الحراسة كثيفة والأبواب مغلقة، وقد سـبقني إلـى الـزعيم الـزميلان الدكتوران خالد القصاب وهادي السباك ، بعد فحصه وجدت أن الصـدر غير مصاب وان الرئتين سالمتان ولم تتأثرا بالإطلاق الناري الذي وجُه إلى هذه المنطقة ، ولا يوجد "استرواح صدري" أي وجـود هـواء فـي القفص الصدري ، وخرج الزعيم وعُهِدَ إلى الزميلين القصاب والسـباك بمعالجة الجروح ، وعلمت أن عدداً من أسرة الزعيم ، الذين كانوا مـن مرضاي المواظبين ، وخاصةً شقيقته المرحومـة أم رعـد ، وزوجهـا الزعيم عبد الجبار جواد ، والسيدة حرم السيد حامد قاسـم أخ الـزعيم، وبقية أفراد العائلة ، ألحوا عليه أن يتخذني طبيباً خاصاً له وأجابهم أنـه بصحة جيدة ويعرفني كطبيب جيد وما من حاجة لطبيب خاص وسيطلبني كلما وجد ضرورة في ذلك .

لقد زرت مقر الزعيم أكثر من مرة باستدعاء من سكرتيره الخاص السيد جاسم العزاوي ، وأصبح هذا أحد الاصدقاء ومريضاً لي مع عائلته كمـا أن نجله كان أحد طلبتي في الكلية الطبية ببغداد وأهدى لي المقدم جاسـم مسدساً من الزعيم عبد الكريم . استدعاني مرة عنـد تعـرّض رئـيس الحزب الشيوعي السريلانكي الى جلطة قلبية - وكان في زيارة للعراق - فأدخلته إلى مدينة الطب وعالجته وخرج متحسناً وسافر إلى بلاده وهـو

بصحة جيدة، وقد جلبت لي هذه الخدمة إدانة وعتاب مـن أحـد كبـار الأطباء الذي قال لي : ألست أنت من عالج فلان ؟ . وأجبته ببسـاطة : هل ستمنع يا دكتور طبيباً من معالجة شخص أحمر أو أبـيض أو مـن ديانة ما ! .

وأعلمته أنني قد أعطيت استشارة طبية لمساجين أو موقوفين من العهد الملكي ، ولم أتردد من عيادة آخرين أو زيارتهم في بيوتهم ، وقد عدت في وضح النهار سيدة في بيتها وهي والدة أحد الضباط الأحرار ممن اختلفوا مع الزعيم في حينه ؛ بالرغم من طلب ذويها أن تكون الزيارة مسائية حفاظاً عليّ من أن أتعرض لمتاعب أو مُساءلة .

وفي إحدى هذه الزيارات لمقر الزعيم في وزارة الدفاع دعا من كان حاضرا لتناول الغداء والذي يجلب من بيت أخيه بالسفرطاس" انية أسطوانية مقسمة إلى عدة طبقات يوضع فيها الطعام يستخدمها العمال ويبدو أن الكلمة تركية وكان الطعام فيها متواضعا وبسيطا جداً ، وقد تكلم الزعيم في تلك الجلسة عن الشعراء وتذبذبهم بين المدح والهجاء ، وفي زيارة أخرى



الزعيم عبد الكريم قاسم

لمقر الزعيم دعيت لمعالجة رئيس بلدية "ناجازاكي" اليابانية الذي أصيب بمرض طارئ أثناء زيارته للعراق .

ورغم كل الأجواء المتوترة وصراع التيارات السياسية العراقية ؛ دأبتُ على الانهماك في الفعاليات الطبية والمهنية بزخم متزايد ، بدأ بالعمل في الجمعية الطبية العراقية وهي ذات طابع علمي بحت تختلف عن نقابة المهن الطبية ذات الطابع المهني ، ففي سنة 1962م كسبنا الانتخابات الحرة في الجمعية التي تشكلت هيئتها من سبعة أعضاء كان منصبي فيها سكرتيراً - وهو العمود الفقري للجمعية – وكان ثلاثة من الأعضاء محسوبين كمستقلين وأنا أحدهم وضمنهم نائب الرئيس ، وأربعة أعضاء ضمنهم الرئيس من اليسار ، وكانت الأمور تسير بشكل جيد ومنتظم وجرى تقديم المحاضرات المسائية الشهرية بشكل دائم ، ونظمنا أهم مؤتمر طبي على مستوى العراق وكان مرموقاً من حيث المستوى والتنظيم ، ولا زال يذكر لمستواه العالي لسنين طويلة ، وتبع ذلك الانتخابات للسنة التالية 1963م ، وقد فزنا ثانية بتبديل رئيس الجمعية من الدكتور صادق الهلالي إلى عبد الفتاح ناجي محافظين على نسبة المستقلين 3 إلى 4 من اليسار ، وكان النشاط اليساري في تزايد مستمر ورجحت كفتهم بصورة واضحة ، وفي ذلك الوقت وصلتني رسالة شفهية كسكرتير للجمعية من قبل كتلة اليسار في الجمعية والهيئة الإدارية ، ثم تبعتها رسالة أخرى من نقيب الأطباء الدكتور وصفي محمد علي - وكان محسوباً على اليسار – ؛ طالبين فيها حل الجمعية الطبية ودمجها بنقابة ذوي المهن الطبية ، فكان ردي سريعاً وقاطعاً بالرفض ، لا مساومة فيه ، لعدم وجود سبب ولاختلاف الأهداف والأعمال في المؤسستين ، وبقيت على رأيي رغم الإلحاح القوي من الدكتور وصفي محمد علي ، لقد

ساندني في تلك الظروف الدكتور المرحوم بديع صبحية وهو مسيحي - بينما تردد نائب الرئيس المستقل والمعروف باتجاهه القومي سابقاً . وعندما دام النقاش ؛ دمعت عيناه وقال إنه لا يمكنه معاكسة الزملاء اليساريين ، ولم يكن أمامي إلا تقديم الاستقالة كسكرتير للجمعية ، ولم تقبل الاستقالة بالإجماع وانهار مشروع حل الجمعية الطبية ودمجها بنقابة المهن الطبية ، ولم يكن ذلك لقوة خارقة أملكها ، بل لسلامة موقفي المبدني وصلابتي التي لم تكسر ، وتعاقبت الحوادث سريعا وقامت مظاهرات ضد الحكم القائم ، وجاء وقت انتخاب الجمعية للسنة الثالثة ولم يكن هناك رغبة من أحدنا للاشتراك فيها أو التنافس عليها ، إلا نائب الرئيس ذاك ، الذي أخذ يجوب الأمصار جانباً



الجمعية الطبية العراقية مع الزعيم عبد الكريم قاسم 1961م

الزملاء ليصوتوا له كرئيس جديد للجمعية ، وهكذا كان ، وعلمت في وقت قريب أن الزميل غير اتجاهه ثانية باتجاه الحزب الحاكم ، ولا أعرف أين ستكون محطته القادمة ، ولله في خلقه شؤون .

شخصية الزعيم عبد الكريم قاسم

ليس لي كثير من التحليل العميق لشخصية الزعيم عبد الكريم قاسم من خلال لقاءاتي القليلة والبسيطة به ، ولكن أجد من الصعوبة بمكان التهرب من القول : إن الزعيم كان حاد الذكاء وله إلمام واسع بالمجتمع العراقي ، ولم يكن مصابًا بمَسٍ من خلل عقليّ - كما حلا للبعض تشويه صورته - ولم يكن تغيير ميكانيكية النوم لديه إلا لضرورة الوضع السياسي ولا علاقة له بمرض عقلي أو نفسي ، بل كان وطنياً صادقاً ، نظيف النفس ، لم يطمع بمال ولا مكسب ، ولم يستفد من منصبه أقاربه وذووه وظيفياً أو مالياً، وكانت معيشته في وزارة الدفاع بمنتهى البساطة والتواضع ، على عكس ما وصفت به بعد اغتياله ، لم يكن شيوعياً ، ولم يكن ضد القومية العربية ، ولا اعتقد شخصياً أنه كانت له أي جذور أو امتدادات أجنبية ، أراد أن يوفق بين تيارات متضاربة في بحر مائج ؛ بتقريب جماعة وإبعاد أخرى ، محاولاً صهرهم بأجمعهم في بوتقة واحدة ، هي بوتقة العراق لتشمل العراقي بكل فئاته من عرب وأكراد وقوميات أخرى ، وهذا ما أشار إليه أكثر المتضلعين بالسياسة وعلم الاجتماع . لقد كان طرح الزعيم عبد الكريم قاسم هو الحل الأفضل والأصلح للحفاظ على تلاحم ووحدة العراقيين .

كان الزعيم بعيداً عن الطائفية ، وأراد أن يزيل الفجوة بين الطوائف ، مخلصاً في مساعدة الفقراء ومساندتهم ورفع مستواهم المعيشي والصحي ، وإخراج شريحة كبيرة من بئر الفقر العميق إلى مستوى مقبول من

عيش الكفاف ، وإزاحة العوز والفاقة عن كاهل المجتمع العراقي ، فهو الذي أنشأ مدينة الثورة لرفع مستوى هذه الطبقات الفقيرة ، بالأضافة الى الإعمار وشق الطرق وقناة الجيش وقانون النفط الجبار" قانون رقم 80 " والأصلاح الزراعي ومشاريع الري وازالة الأقطاع والخروج من حلف بغداد والطوق الأسترليني . ومن الثوابت الواضحة أنه كان يسكن في بيت متواضع جداً بإيجار قدره 15 ديناراً ، ولم يستغل منصبه بالترقية العسكرية المعروفة ليوم واحد ، وقد اغتيل وهو برتبة آمر لواء أي بحصول ترفيعين رئيسيين – وهو في السلطة وعلى رأس الحكم ، وعند صدور الأمر بعد انقلاب 8 شباط 1963م بمصادرة أمواله المنقولة وغير المنقولة ؛ وجد أن كل ما يملكه كان ديناراً و300 فلس فقط وبدلة عسكرية نظيفة .

ظهرت مع مرور السنين كتب ومنشورات ومن بينها قسم من المخابرات الاجنبية تمجد جميعها الزعيم قاسم .

سمعت بعض هذه المقولات من قيادي الفئة التي أزاحته وقتلته بطريقة تفتقد الأخلاقية وعارية عن العرف العسكري .

كان رحوماً رؤوفاً ، ومن قراراته أن ألغى حكم الإعدام على من تآمر لاغتياله قبل ساعات قليلة من التنفيذ ، وكان ديدنه "عفا الله عما سلف" ، وكثيراً ما كان يردد أن المتآمرين كانوا يرومون القضاء عليه هو ولم يتآمروا على الوطن ، وأن على المتآمرين أو من أرادوا اغتياله أن يطلبوا الصفح والرضا من عائلة سائقه الذي استشهد في المحاولة ، ومن سخرية القدر أن كان هؤلاء من نفس التنظيم الذي لم يعطِ فرصة لهذا الزعيم بمحاكمة عادلة، وأنهوا حياته بعد ذلك بصورة أبعد من أن تكون مقبولة أو شريفة بأي ميزان ، والتي يتذكرها مشاهدو تلفزيون بغداد سنة

1963م ، وليتولى أحد قياديي هذه المجموعة والذي أعلن بملء شدقيه وعلى التلفزيون بأنهم جاءوا بقطارٍ "أميركي" .



الزعيم قاسم مع عبد السلام عارف

لقد رفض الزعيم في ذلك اليوم توزيع السلاح على الجماهير الغفيرة التي كانت تنتظره عند باب وزارة الدفاع ، وقال : لا أريد حرباً أهلية ، وعندما استقر في قاعة الشعب ومعه جماعته المخلصون منعهم من إطلاق النار واستعمال السلاح ، وخرج مستسلماً بدبابة وبملابسه

العسكرية ليقابل الذين حاولوا اغتياله سابقاً ، ولكل طريقته في رد الجميل ، ولا أعتقد أني بعيد عن الإنصاف إن قلت أن عبد الكريم قاسم كان الشخص المحبب والأقرب إلى نفوس الجماهير العراقية على الإطلاق ، وليس لي ما أضيفه بحق رجل انصفه التاريخ والمؤرخون ولم ينصفه من منح لهم الحياة وقال لهم مجازاً "اذهبوا فأنتم الطلقاء" .

ما بعد الزعيم عبد الكريم قاسم

أعود مرة أخرى إلى عيادتي التي استمرت في النمو وازدياد المراجعين ، مصحوباً بنمو موقعي الوظيفي في الكلية الطبية ، حيث حصلت على الترقيات العلمية من معيد إلى مدرس إلى أستاذ مساعد ، وسآتي على مرحلة الأستاذية لاحقاً بشيء من التكثيف والإيجاز في الوقت نفسه ، ولقد انحسرت عن مراجعة عيادتي عائلة الزعيم قاسم ، وقد يكون ذلك خوفاً أو بسبب مراجعة بعض رجال الحكم الجديد لي ، وهكذا كان ديدن العيادة على مر السنين ؛ أعالج أي فئة ومن أي لون .

ولا بد لي من التنويه ؛ أن محكمة المهداوي أتت بكثير من السلبيات على حكم قاسم الوطني ، والتي اتصفت بالهرج والمرج ، وقد لا تخلو من هذه الظواهر المحاكم الشعبية ، إلا أنها كان يجب أن تكون أكثر انضباطاً وأقرب إلى القانون والنظام والمدنية ، هذا بالإضافة إلى الخراب الذي لحق بنظام الزعيم من الفئات اليسارية المتطرفة ، من طوفان غير مقبول بمحيط محافظ وبلد مسلم .

حكم البعث

كان يراجعني في تلك الفترة السيد أحمد حسن البكر ، وقد اصطحبني أحد أصدقائي -وكان من جماعته السياسية - إلى داره لاستشارة طبية ، وزارني في تلك العيادة العديد من المسؤولين الكبار وعائلاتهم وكانت

علاقتي بهم مهنية بحتة في أغلب الأوقات ، ومن خلال ممارستي لعملي هناك ؛ أرقتني وأقضت علي مضجعي صرخات وأنين وشكاوى الأمهات والأخوات من مرضاي واللواتي فقدن ذويهن بطرقٍ عجيبة ، وقد عشت بسبب ذلك حزناً وأرقاً وألماً مبرحاً . وجاءت حركة تشرين يوم 1963/11/18م التي أنهت الحكم المباشر لحزب البعث لمصلحة العناصر العسكرية . ولم يكن لي صلة مهنية مع حاكم هذه الفترة "عبد السلام عارف" ؛ لنصيحة ألقاها أحد زملائي في مسامعه أدت لاستبعادي وكنت أجهل السبب ، رغم أني كنت طبيباً لأخيه اللواء عبد الرحمن عارف وعائلته ومدير الأمن العام الذي كانت تربطه بعارف صلة قربى حميمة ، إضافة إلى آخرين .

وحدث أن توفي أحد أفراد أسرتنا فأرسل الرئيس عبد السلام عارف مبعوثاً شخصياً للتعزية ، فتوجهت إليه بالشكر حين التقيته في المقر الرسمي ، ولاحظت يومها هبوطاً ملحوظاً في وزنه وقال لي أن لديه مشكلة في النوم، وأجبته باختصار: إنها المسؤولية . واستمر الحال كذلك إلى أن حانت منيته باحتراق طائرته جنوب العراق في نيسان سنة 1966م بظروف غامضة تحيطها الشبهات ، وجيء باللواء عبد الرحمن عارف كرئيس للجمهورية والذي استمرت علاقتي به وبعائلته مقدماً له ما يلزم من الخدمات الطبية ، ولم يكن هو نفسه بحاجة كبيرة لهذه الخدمات . وفي ذات مرة عاد من سفرته إلى فرنسا وقدم لي هدية رمزية وأخبرني أن أجهز نفسي أنا وزوجتي للسفر معه إلى إسبانيا في وقت لاحق ، ولكنها لم تتم ؛ فقد أتى القدر مرة أخرى لينحى حاكمًا آخر عن عرش العراق ، حيث جاءت نهاية حكم عبد الرحمن عارف بتنفيذ انقلاب 17 تموز 1968م .

كان الفريق عبد الرحمن عارف ، أبو قيس ، رجلاً متوازناً هادئ الطبع . بسيطـاً متواضعاً دمث الأخلاق . كان حسن النية بالاخرين ويكسبون ثقته ببساطة وعندما بلغه بأن البعض يتامر عليه اكتفى بالقسـم بـالقران الكريم من اقرب مرافقيه واقاربه واغلق الموضوع وظهـر بعـد اذ ان هؤلاء بالذات هم الذين تآمرو عليه ومن بدأ بإطلاق النار . وهذا حـديث صادر عنه حينما كان في غربته في تركيا والاردن .



الرئيس عبد الرحمن عارف

أجهل قابلياته العسكرية ، وقد يفتقد القـوة والعـزم واتخـاذ القـرارات الضرورية . ومما لا شك فيه انه كانت هناك فجوات استخبارية خطيرة في عهده حيث تمكن رئيس حرسه ومدير استخباراته ومن تربطـه بـه صلة قرابة بالتآمر عليه وتدبير انقلاب هزيل أودى بحكمـه وأدى الـى استسلامه وتسفيره بعدئذ الى تركيا ، ليصبح الأول والوحيد من بين حكام العراق الذي لم يواجه نهاية مأساويّة .

الدكتور عبد الرحمن البزاز

كنت خلال تلك الفترة ؛ أعالج صديقي الأستاذ عبد الرحمن البزاز وكثير من المسؤولين ، ومنهم أذكر الضابط الكبير السيد سعيد صليبي وهو أحد الشخصيات المهمة التي قررت مصير الجمهورية بعد احتـراق طـائرة الرئيس



صورة عارف والبزاز

عبد السلام عارف بالإضافة إلى ضباط كبار آخرين ، حيث قيل أنه ضع مسدسه على طاولة الاجتماع الطارئ للقيادة في ذلك الوقت قائلاً : لا يمكن أن تعهد رئاسة الجمهورية إلا لعسكري ، رغم أن كفة المرحوم البزاز كانت هي الراجحة آنذاك بالتصويت .

وبقي البكر يتردد على عيادتي ينتظر الوقت الطويل جالساً في غرفة السكرتير مقدماً له الهدايا من التبوغ بين فترة وأخرى ، وكان البكر متأثراً بعمق لممارستي الطبية والعدد الذي يرغب بمراجعتي بموعد قد يتعدى الشهرين أو الثلاثة ؛ مما لا ينال رضاي وقبولي بذلك مهنياً وأخلاقياً ، ولم أجد طريقة أخرى للممارسة هذه ونتجت عن تحديد عدد المراجعين لما لا يزيد عن 12 مريضا يومياً ، وقد أثرت مشاهداته تلك في عيادتي على بعض تصرفاته عندما تسلم المسؤولية بعد ذلك كما سيأتي ذكره .

لابد لي من العودة إلى بعض الأحداث المهنية والجامعية التي تزامنت مع مسيرتي في العيادة الخاصة ؛ فقد كنت حاصلاً على زمالة كلية الأطباء الأميركية بأمراض الصدر ، إضافة إلى الماجستير وعضوية كلية الأطباء الملكية البريطانية التي ارتقت بعد ذلك إلى درجة الزمالة بنفس الكلية نظراً لمسيرتي التدريسية ونتاجي في الكتابة والبحوث الطبية ، وكنت جاهزاً ومستكملاً لمتطلبات الترقية للأستاذية . وبالرغم من أنني أكملت المدة اللازمة كمدرس وأستاذ مساعد ، فقد حصل تلكؤ ومقاومة لهذا الأمر من قبل رئيس الفرع الباطني آنذاك الأستاذ الجليلي عن غير حق، كما أرى، ويرى كثيرون من مجلس الجامعة، وبعد جولات وصولات حادة، أخذ الحق مجراه واكتسبت درجة الأستاذية في عام 1966م .

ومن المفارقات الأخرى - وما أكثرها في العراق أو في كلية الطب على حد سواء – والتي لم يصدقها أحد ممن تحلى بمنطق سليم وعقل راجح ؛ هي ، أن رُقّي الأستاذ الجليلي ليصبح رئيساً لجامعة الموصل ومشرفاً على كلية الطب فيها وعلى القسم الباطني بنفس الكلية ، إلا أنه أصر على الاحتفاظ بالوصاية والسيطرة على قسم الطب الباطني في جامعة بغداد ؟! بالرغم من وجود عددٍ كبيرٍ من الأساتذة القدامى والمتمرسين في نفس الفرع ببغداد . وقد دخلنا جولة قانونية أخرى ، وأطلق الزملاء علينا لقب "الفرسان الثلاثة": بديع صبحية و محمود ثامر و فرحان باقر و احسان البحراني ، وانضم إلينا لاحقاً المرحوم الأستاذ سالم الدملوجي ، وكسبنا هذه المعركة بعد أشهر، ولسبب مبدئي واضح رغم إسناد وزير العدل آنذاك المرحوم الأستاذ النقشبندي للدكتور الجليلي ، الذي تربطه به صلة قربى .

اعتقال الدكتور البزاز

من خلال الزيارات الطبية المتكررة ومن خلال احتكاكي بشرائح مختلفة من المجتمع والتي لا يمكنني الانفصام عنها علمت كما علم الجميع بتوقيف الأستاذ الدكتور عبد الرحمن البزاز ، وكان صديقًا كريمًا لي وهو إلى جانب ذلك مريضي الذي أعالجه حيث انه كان يحتاج إلى العلاج بشكل منتظم علاوة عن كونه صهر زميلي وصديقي الدكتور مكي الواعظ وزوج شقيقته وابن خاله ... الخ . وقد حاول الدكتور مكي أن يوصل له العلاج عن طريق وزير الصحة لكنه لم يفلح في هدفه واخبره أن التوسط يعتبر نقطة ضد من يتم التوسط له عند الحزب . ذهبت منزعجًا إلى الرئيس البكر ولم أتمكن من إخفاء انزعاجي وقلت له : إن فلانًا صديق لي وهو مريض وليس لي علم بما سيقوله القانون أو التحقيق

بحقه ولن أتدخل فيه لكن من أبسط حقوقه أن يصل إليه الدواء وأسـنانه الاصطناعية التي يحتاجها . هدأ من روعي وقال : ليس هناك ما يمنـع إيصالها ومن الذي منعها من الوصول ؟! . وفعلا تم بعد ذلك إيصالها له وأعربت للرئيس عن امتناني وشكري . وقد سمح بفحصه من قبلي فـي القصر الجمهوري . ولقد رفضت أن يتواجد معي حارس الأستاذ البزاز في غرفة الفحص اتباعاً للتقاليد الطبية المعروفة ، وبعد نقاشٍ طويل مع رؤساءهم في المخابرات جرت الموافقة على ذلك على مضض .



عبد الرحمن البزاز

ولم أتطرق مع الدكتور البزاز كثيراً عن وضعه في السجن وكـــان هـــو بدوره أكثر من حكيمٍ في ذلك ، ويكتفي بإشارات فقط ، وقد قرأت كتابـــاً بعدئذٍ كتبه أحد زعماء الجالية اليهودية في العراق كان معتقلاً معـــه دون فيه ما لاقاه الأستاذ البزاز من معاملة سيئة من سجانيه .

وثمة موضوع آخر مشابه حيث وصلني عن مريض وصديق وهو أستاذ جامعي أن حالته سيئة في المعتقل مع صعوبة تـــوفير العنايـــة الطبيـــة اللازمة لأمراضه وقد جرى إصلاح ظروفه وخفضت مدة احتجازه على ما اذكر بعد التوسط لدى الرئيس البكر .

ومن هاتين الحادثتين يتراءى لي أن لم يكن هناك للرئيس علم بمن هم في المعتقلات وما يحدث لهم ، وفي صباح أحد الأيام فتحت باب بيتي لأفاجأ بسيدة مع أطفالها الستة تتوسل إلى وتطلب مني المساعدة فـــي التوســـط لزوجها المعتقل بتهمة مخدرات والذي ينتظر عقوبة الإعدام ، ونقلت إليّ عن زوجها انه مستعد للتكفير عن خطيئته وبناء ردهـــة للفقـــراء علـــى حسابه الخاص واستعداده لإعلان التوبة . نقلت ما قالته لي السيدة ومـــا على الرسول إلا البلاغ وعندها ابتسم الرئيس وطلب مني أن أصم أذني عن مثل هذه الطلبات لأنها ستتكرر كثيرًا في المســـتقبل وأعـــرب عـــن استعداده لتلبية كافة طلبات مدينة الطب والاحتياجات المهنية التي أراهـــا مناسبة وضرورية. انتهزت الفرصة وطلبت إنشاء مختبر وظائف الرئة ، وقد اتخذت الإجراءات فورًا لصرف ما يحتاج المشروع من المال وشراء المعدات ، واعتذرت أن أتصرف بهذه الطريقة مشيرًا إلى ضرورة اتباع الخطوات الرسمية وحسب الأصول بتقـــديم العطـــاءات والمواصـــفات المطلوبة ، وهذا ما جرى فعلاً وتم إنشاء المختبر .

الفصل الثالث

استمر بي الحال مواظباً على التدريس المستمر والمشاركة في اللجان المهنية ، لإدخال الطب الحديث والتحسينات العلمية إلى بلدي ، وفي 17 تموز 1968م ، هبّت ريح عاتية لتأتي بالبعث ثانية ليحكم العراق ، ولم يستوعب الكثيرون رجوع البعث الذي لم تزل آثاره المؤلمة من حكمه الأول سنة 1963م عالقة بالأذهان ، وقد كان انقلاب تموز 68 من الهزالة بشكل أقرب إلى لعب أطفال صغار ، بضعة مدرعات بسيطة وقديمة ، وطلقات معدودة ، لينتهي كيان نزيه كان يمكن أن يتطور مع السنين ، تكوصاً إلى حكم الحزب الواحد الذي سيسجله التاريخ بكتب ومجلدات .

إن مشاركتي هنا وما أدلي به ، هو في حدود علاقتي المهنية ، فقد رأيت من الواجب الأدبي في ذاك اليوم - 17 تموز – أن أرسل ببطاقة تهنئة إلى أحد مراجعي عيادتي ؛ رئيس التنظيم في حينها أحمد حسن البكر ، وفعلت ذلك على بطاقتي الشخصية للمراجعة "فيزت كارد" مرسلة بالبريد العادي ، وبعد يومين وعندما كنت أسبح مع أطفالي في بركة السباحة في نادي المنصور ؛ جاءني نداء بالميكرفون للرد على مكالمة لم تكن متوقعة ، فقد كان المتكلم على الطرف الآخر هو رئيس الجمهورية العراقية الجديد ومن القصر الجمهوري ، وخاطبني معاتباً بكثير من الرقة : إن هذه الطريقة لا تكفي ، ولا نقبل بتهنئة بسيطة وبطاقة من هذا النوع . واعتذرت بحرصي على عدم إشغاله وأخذ وقته الثمين وهو في بداية حكم جديد ، ووعدته بزيارته والسلام عليه في أقرب فرصة .

وذهبت لزيارته ، واستقبلني الرئيس البكر استقبالاً حاراً ، ممتدحاً كفاءتي وثقته بي، عارضاً علي رغبته بأن أكون الطبيب الخاص للقصر

الجمهوري وتجهيز دائرة فخمة لي قريبة منه ، وأبديت عميق اعتـزازي وشكري لهذا التكريم ، إلا أنني اعتذرت بطريقة مؤدبة بأنني لا أتمكـن من الأنعزال عن التعليم الطبي وممارسة المهنة سريرياً ، حيث أنها جزء من لحمي ودمي وحياتي اليومية ، وأبديت كامل استعدادي للاستجابة مباشرة لأي احتياجات ونداءات طبية في أي وقت من الليـل والنهـار ، وهكذا كان ، وقبل الرجل بحل ليس له خيار ثان فيه ، وصـدر الأمـر الرسمي وهو الأمر الوحيد بطبابة القصر الجمهوري ليتبعه بآخر بعدئذ ، والذي سأرد على ذكره ، وأصبحت أتردد على القصر وعلى بيتـه فـي أوقات كثيرة ، وحسب طلبه ، ولم أتبرع بالذهاب من تلقاء نفسـي ولـو لمرة واحدة .

وفي أوائل أيام الانقلاب ؛ كان البكر يصحبني إلى الغداء في القصـر ، ولأكثر من مرة ، لأجلس عن يساره مباشرة ، وعن يمينه يجلس نوابـه السيد حردان التكريتي والسيد صالح مهدي عماش ورئيس أركان الجيش وعدد آخر من المسؤولين ، ويجلس في ركن بعيد من القاعة شاب أسمر رشيق برتبة ملازم ، عرفت بعدئذ أنه السيد صدام التكريتي ، وشاركت الرئيس البكر الغداء مرة أخرى كرابع شخص في بيتـه برفقـة نائبيـه ورئيس أركان الجيش لا غير ، ولم تكن لي أي مشاركة بأي نقاش جدي في أي من تلك الاجتماعات ، بل تهيأت لي الفرصة للاطلاع على تغذيته وعلاقتها بمرض السكري الذي كان مصابًا به منذ سنوات .

لم يكن الدخول إلى القصر الجمهوري وبيت الرئيس والخـروج منهمـا بالأمر الهيّن والسهل ، وهو أمر اعتدت عليه ، حيث كنت في كل مـرة أواجه النداءات والصراخ : قف قف قف ، وتشرع الأسلحة بوجهي إلـى أن أثبت هويتي ، وقد أخبرته يوماً - على سبيل النكتة – بأني سأصـاب

بمرض السكر من جراء هذه الهزات المتكررة من الصراخ التي لا تخلو من رعب وخوف ، فضحك وأمر بتخفيفها إلى حد مـا . وكـان البكـر متواضعاً بطلباته ولا إلحاح لديه فيها ، كطلبه أن أمر به بعد انتهاء عملي في العيادة ، ولو أن ذلك كان بسبب ألم في الصدر الذي لا يُقْبَل فنيـاً إلا بالاستجابة الفورية له ، وبأي ميزان من مـوازين الممارسـة الطبيـة ، وأكدت له رجائي وإصراري على إخباري عن أي عارضٍ يلم به ليترك لي بعد ذلك الاستجابة له وتحديد الوقت الذي أراه مناسباً .

لقد كبرت وتوسعت المسؤولية مع الأيام ، ولابد أن تكون هناك رمـوز طبية أخرى لمختلف الفروع ، وحتى في اختصاصي للمساعدة والتغطية عند غيابي أو سفري ، لا سيما وقد اتسعت المسؤولية من صحة الرئيس لتشمل عائلته وآخرين ، وأخيراً لتشمل العناية الصحية بالسـيد النائـب صدام التكريتي وعائلته والأقارب المرتبطين به .

وجدير بالذكر أن عائلة الفريق عبد الرحمن عارف انحسرت ثانية عـن مراجعتي منذ ذلك الحين مثلما حصل عام 1963م مع عائلة الزعيم عبد الكريم قاسم ! ظناً منهم بأني قد أصبحت من أزلام النظام الجديد .

لقد أدخلت إلى خدمة القصر الجمهوري الطبيـة كـل الـذين رشـحتهم وقررت الأعتماد عليهم ، وكان المقياس الوحيد في حساباتي لمن أختاره - ولم يلاق أي اعتراض من المسؤولين - هو الكفاءة والاستقامة ، ومن هؤلاء الدكتور أكرم الهلالي للمختبريات ، والدكتور إبـراهيم الحيـالي كأخصائي قلب ، والدكتور عبد الحميد السعدي والدكتور محمود الهاشمي للعيون ، والدكتور هادي السبّاك للعظام والكسور ، والـدكتور جلبـرت توما والدكتور الموسوي للأنف والأذن والحنجرة ، والدكتور علي كمال والدكتور آرتين قنطرچيان للأعصاب والدكتور زهير البحراني للجراحة

، وقد استدعي في بعض الأحيان زميل أو آخر باقتراح جهـات طبيـة لغيابي أو عدم تواجدي ، ولم يتواصل هؤلاء لمدة طويلة فـي معالجـة السيد البكر ، وتكاد تكون كل الاجتماعات والاستشارات بعلمي ومعرفتي ، وتناقش بشكل موضوعي وهي مسجلة على أشرطة كاسيت ومحفوظة في سجلات خاصة ، وقد أثيرت لأكثر من مرة الحاجة إلى الاستشارات الطبية الخارجية لحالات مختلفة للسيد الرئيس أو عائلته مـن إنجلتـرا و فرنسا وأمريكا بقدر معرفتي بهم أو بالأستعانة بزملاء آخرين من فروع أخرى في ترشيح الأختصاصيين بحسب الحاجة ، وكنت دائما على رأس اللجنة أو منظمها أناقش وأحفظ وأسجل وألخص القرارات . وقد حصلت على إعجاب وتقدير الجميع من الأطباء الأجانـب (إنجليـز وأميركـان وصينيين وكوريين وجنسيات أخرى) ، وحُفظت النقاشات مسجلة علـى أشرطة لديَّ وفي القصر الجمهوري .

لقد صعب على زميل أو زملاء في دوائر الحزب الحاكم تفهـم الـدور الرئيسي الذي أتمتع به في طبابة القصر الجمهوري وزيارتي للـرئيس وفحصه ، مع أن هذا الأمر لم يكن رغبتي واختياري . وجرى ضـغط شديد على الرئيس حسب ما علمت بعدم استحسان هذه الطريقة وأعطوه تأكيدات وأيمان بأن وجودهم ضروري كمراقبين فقط دون أن يكون لأحد حق التدخل في قراراتي أو تغييرها ، ولم يكن الانفراد بطبابة الـرئيس والعناية به مطلبي، بل العكس ، كانت هذه رغبة الرئيس أما تبريرهم لها فجاء لكونه رأس السلطة الحزبية الحاكمة وأنا كطبيب لست منتميًا لهـذا الحزب مما يوجب وجود مراقب وغير ذلك . واسـتمرت المحـاولات المختلفة إلى أن صدر مرسوم جديد بتأليف لجنة والتي أخبرني بها قبـل صدورها ، برئاسة الدكتور غائب مخلص وزير الصحة في تلك الفتـرة

وعضوية آخرين تغيب عن ذاكرتي أسماؤهم بالضبط ، وأذكــر منــهم الدكتور جابر محسن و محمد علي خليل و احسان البحرانـــي و صــادق علّوش الذي كان يلازمني كظل لي في كل زياراتي أو أكثرها ولا يبدي رأيًا طبيًا أو اعتراضًا في الاجتماعات . واسرّ لي الرئيس بأن لا أعيــر أي اهتمام لهذا الترتيب ، وان الأمر كله مجرد شــكليات أو صــوريات وأنني طبيبه الوحيد الذي يعالجه وسأبقى .

وأعلمته أن هذا الأجراء لا يضيرني في أي حال من الأحوال بل هو في صالحي ، فكلما زادت الأصوات والاقتراحات وأخذ برأيي ولــم يحــدث عليه اعتراض يعني أنني في طريق صحيح . ومما يجلب لــي القناعــة والرضا أن انجح في إقناع أي جهة أخرى بوجهة نظري الخاصة بعــد نقاش علمي كما يحدث في اجتماعات اللجان الأجنبية التي اعترف لــي الجميع بكفاءتي في تنظيمها وشهد بذلك الزوار الأجانب . وكمــا قلــت وأقول دائما : إنني أتعلم من الجميع من طلابي ومــن المقيمــين الجــدد والزملاء ، وبالفعل تعلمت ممن هم دوني مرتبة ما ليس بقليل على مــر السنين ، وتلك هي خاصية العلم ومسيرته والطب أحد فروعــه ولا أزال اعتبر نفسي تلميذًا في الطب .

جرت اكثر من محاولة وحديث كلها من قبل الرئيس البكر طالبًا منــي الانتماء إلى الحزب وكان ذلك بحضور زملاء آخرين حيث يقول : "مــا يصير يا أبو احمد أن تبقى هكذا ، وأنت تدخل إلــى بيوتنــا ودوائرنــا وتعالجنا وعوائلنا وتطلع وتعرف الكثير". وأجبته بابتسامة وامتناع مؤدب بأنني طبيب وأحاول أن أبقى كذلك فقط بدون لون أو انتمــاء سياســي ، طبيب للجميع واهبًا خدماتي لكل من يحتاجها ولا فرق بين فئة وأخــرى أو جناح وآخر .

وفي مناسبة ثانية كانت بحضور أطباء كثيرين منهم د. علوش و احسان البحراني و محمد علي خليل أعاد الكرة وسألني لم لا أنضم للحزب حيث أن علاقتي به وبالرفاق تحتم عليَّ ذلك . وقلت له ثانية بطريقة مازحة ومؤدبة : كيف تريدني يا سيادة الرئيس وأنا بهذا العمر أن أبدأ بصف "الشعبة" وهو التعبير الذي كان متعارفًا عليه عند الناس بأنه يسبق الصف الأول الابتدائي . لم يفهم النكتة في البداية وحين فسر له الجماعة ما أعنيه قال مبتسماً : لا عليك سأكون أنا مرشدك ومنظمك ومعلمك في الأدوار الأولى ، وانتهت الأمور عند هذا الحد ، وبقيت على ما أنا عليه مستقلاً دون الأنتماء لأي حزب سياسي . ولم يكن لديَّ شك بأن كل هذه المحادثات أو القسم الأكبر منها كان ينقل إلى جهات أخرى ولا يُستثنى من ذلك حتى الزيارات البيتية للرئيس البكر ، وربما كانت مراقبة ومنقولة هي أيضًا ، وحدث ذات مرة أن أُخْبِر السيد النائب بأن صورته الموجودة في مقر الرئيس البكر قد أزيلت من مكانها ولم يكن ذلك صحيحًا لكنه مع ذلك سبب إزعاجًا كبيرًا لأكثر من طرف حسب ما أخبرني الرئيس البكر .

لقد كنت أُستدعى من قبل الرئيس لشكاوى مختلفة كصعوبة في النوم أو توتر عصبي أو آلام وأوجاع هنا وهناك ، وكان من الطبيعي أن اسأل : كيف كان يومك وهل تعرضت لضغوط عصبية في جلسات حادة وهذه من أبجديات المهنة ، ويبدو أن هذا الأسلوب في الأستفسار لم يكن يُرضِ الزميل المراقب حيث نقلها بشكل يجافي الحقيقة ودون احترام لأسرار المهنة.

وحدث مرة أن أراد السفير النمساوي مقابلة الرئيس وحاول ذلك مرات عدة لكن توعك صحة الرئيس حالت دون ذلك ، وأخيرًا حصلت المقابلة

التي أرادها السيد البكر بحضوري فقط ، ودامت لمدة طويلة كنت خلالها أترجم باللغة الإنجليزية وتوخيت الدقة قدر استطاعتي مما أثار إعجاب السفير وتوجه إلى الرئيس بالقول : ليس طبيب الرئيس ممتازًا فقط بل انه أيضًا رجل ديبلوماسي من الدرجة الأولى . ولم تكن تلك الزيارة إلا زيارة مجاملة ولم تكن لتقديم أوراق . بعد هذه الحادثة صدر الأمر بان المقابلات أو الاجتماعات يجب أن تتم من قبل مترجم رسمي ، ومن يعلم ما نقل عن هذه المقابلة وعن ترجمتي !؟ .

لقد تأثرت حياتي الخاصة والعائلية إلى حد كبير بهذه المسؤوليات والواجبات حيث كانت العادة المألوفة أن أسافر كل سنة أثناء عطلتي الجامعية إلى أوروبا لقضاء إجازتي فيها ولم أتمكن من القيام بذلك في هذه الفترة إضافة إلى سلبيات أخرى كثيرة سآتي على ذكرها كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

وفي صيف 1971 – 1972 أخذت إجازة سماح لقضاء بضعة أيام في مصيف سرسنك على أن أكون جاهزًا عند الطلب والحاجة وفي أسرع ما يمكن وذهبت وعائلتي بالسيارة إلى هناك ، وبعد 24 ساعة فقط جاءني طلب عاجل بان السيد الرئيس يرقد في وحدة الإنعاش الحاد في مستشفى مدينة الطب ، رجعت قافلاً في سواد الليلة الليلاء ووصلت إلى المستشفى قبل أن اذهب إلى بيتي وسألت أحد السائقين أن يوصل عائلتي إلى البيت. اجتمعت اللجنة الطبية على الفور وكان بين الحاضرين كل من الدكتور ابراهيم الحيالي و احسان البحراني و محمد علي خليل و الدكتور عزت مصطفى و صادق علوش وناقشنا الموضوع من كافة أوجهه واستعرضنا التحاليل الطبية وسلسلة التخاطيط الكهربائية للقلب وكنت أدير الجلسة بنفسي ، وتوصل الجميع بأن الحالة سليمة وتدعو الى الإطمئنان .

وبالإمكان إخراج الرئيس الى داره ، ويراجعه دكتور فرحان واللجنـــة .
أمر الرئيس أن أركب بجانبه بالستروين الرئاسية وشاركنا بالمقعد الخلفي السيد النائب صدام . لم تعجب هذه الظاهرة أكثر من واحد وما زاد مــن عدد المحبين لي ! .
أقام السيد النائب حفلا ضخما كبيرا بنادي الصيد إبتهاجًا بسلامة الرئيس وحضرها عدد كبير من الأطباء والمسؤولين ولم يحضر الرئيس .
استمرت الامور الطبية له بشكل مستقر ومطئن ، وخسرت اجازتي غير مأسوف عليها وحمدًا لحسن العاقبه وهذه أمنية الطبيب المهني .
سارت الأمور بشكل مرض وغادر الرئيس المستشفى وصاحبته بالسيارة وبمعيتنا السيد النائب صدام التكريتي الذي أقام في ما بعد حفلــة بنـــادي الصيد احتفالا بشفاء السيد البكر .



آية الله السيد محسن الحكيم رحمه الله

زيارة آية الله السيد محسن الحكيم

في أحد الأيام اتصل بي الزميل المرحوم الدكتور كـاظم شـبّر راجيًـا الذهاب برفقته إلى النجف الأشرف لفحص آية الله السيد محسن الحكـيم طاب ثراه ،

وأخذت موافقة الرئيس على ذلك أدبيًا ولكوني طبيبه الخاص . وذهبت إلى النجف وأجريت اللازم ، وفي اليوم التالي ظهرت الصحف تقول أن السيد الرئيس أرسل طبيبه الخاص لمعالجة آية الله العظمى السيد الحكيم. استقر الرأي ان يسافر السيد الحكيم إلى لندن لتلقي العلاج ولتعذر سفري رشحت وبموافقة الدكتور كاظم شبر حصلت الموافقة والاختيار على الأستاذ الدكتور حسين طالب والدكتور محمود ثامر لمرافقته . حمّلني السيد الرئيس رسالة إلى سماحة السيد الحكيم وحاشيته تقول : ان رئاسة الجمهورية ستهيئ طائرة خاصة لنقلهم إلى لندن ولكن السيد الحكيم حملني رسالة شكر واعتذار حيث تم اتخاذ كافة الترتيبات والإجراءات المتعلقة بالسفر .

سافرت بمعية الرئيس البكر إلى الجبهة الغربية ضمن مهمـات خاصـة لتفقد بعض القطاعات العسكرية لأشرف على غذائه وصـحته بصـورة عامة ، واستغرقت تلك الرحلة يومًا كاملاً . كما اصطحبني الرئيس ثانية إلى اجتماع القمة العربية للرؤساء العرب ولحضور احتفالات الفاتح فـي طرابلس في ليبيا قبل اجتماع القمة بالجزائر وكان ذلك في أيلول 1969 وكانت تلك مناسبة للقاء العديد من الشخصيات المهمة والرؤساء وأطباء الرئيس التونسي وطبيب الرئيس ناصر "حمدي السـيد " وقـدم الأميـر عبدالله في قاعة الفندق في طرابلس كولي عهد للملكة العربية السعودية .

ولم تخل تلك الاجتماعات من شد وتوتر عصبي على الرئيس لكن الرحلة مرت بسلام .

وبجانب الخدمات الطبية للرئيس البكر كنت ادعى لتقديم خدمات طبيـــة لعدد كبير من المسؤولين مثل مؤسس الحزب ميشيل عفلـــق وأعضـــاء مهمين في القيادة القومية والقطرية للحزب ونواب الرئيس ومن ضمنهم : السيد عزت الدوري و رئيسة الأتحاد النسائي والسيد طارق عزيز الــذي زرته لمرة واحدة في مستشفى ابن سينا . ولا يتسع المجال للإتيان على كل من عالجتهم حيث أن ذلك لا يخدم الغرض الذي يســعى إليــه هــذا الكتاب ، وقد يجعلني أتطرق إلى نواحي مهنية نحن في غنى عنها .

ولا يفوتني أن أتطرق هنا إلى ما لا يجب إهماله وما ترك آثـاره علـــيّ ومن ذلك ان السيد النائب كان يكلمني أحياناً طالبًا مني معالجـــة بعــض الأشخاص بتوصية خاصة ، وكان من بين هؤلاء اللواء ناظم كزار الذي زارني مرة في مدينة الطب ومرة أخرى في العيادة وفي الحـــالتين لــم يختلف سلوكي معه إلا من بعض التهيب الممزوج بالرهبة من شــخص ملأت سمعته وتصرفاته الأوساط . ولم يبد عليه في زيارته أي مظهــر للكبر أو الخيلاء أو القسوة . وجاءني نداء منه مباشرة في أحــد الأيـــام يدعوني لزيارته في مقره بالدائرة (قصر النهاية) ذائع الصيت . حــددت الموعد للقائه وقضيت الفترة بين المكالمة والموعد في "حسابات" تتناوبني أفكار شتى أبعد من أن تيسر لي الراحة أو الاطمئنان . أخبرت زوجتـــي بالأمر وقلت لها ان تتصل بالرئيس البكر في حال طالت غيبتي لأكثر من ساعتين وتعلمه بالموضوع ، وطلبت من سائق سيارتي أن يقف بعيدًا عن المكان ويراقب بحذر فمن يدري ما الذي تخبئه هذه الزيارة ؟! . المهم أن الزيارة جاءت ذات طابع مهني صرف مع عبارات مجاملة روتينية ومع

ذلك دعوت الله بعد خروجي أن لا أرى هـذا المكـان أبـدًا وكفـى الله المؤمنين شر القتال .

أبو طبر

مرت ببغداد حوادث لم تألفها من قبل وكانت في منتهى الغرابة أشيع أن قام بها رجل دعاه الناس (أبو طبر) واختلفت تفسيراتها ولم يجد المسؤولون حلاً مرضيًا أو يقبل به العراقيون . وفي هذه الأثناء أرسل لي القصر حارسين من قوات الأمن ومسدساً شخصياً صغيراً من السيد الرئيس وآخر من السيد النائب ، وبعد يومين أصبح بيتي محط أنظار وفضول المارة والزوار ، وعندها رجوت القيادة أن تسحب الحراس لأنني لست سوى طبيب للجميع وأقوم بواجبي وما يمليه عليه ضميري وضمير المهنة التي اعمل بها ، وقد لبى الرئيس طلبي مشكورًا .

لم اطلب أن يخصص لي تعويضاً مالياً أو راتباً لأشغالي الطبية المستمرة ليل نهار ولجهات كثيرة ، وفي يوم من أيام السنين الأولى لحكم البعث اخبرني الرئيس البكر انه تم تخصيص سيارة من السيارات الرئاسية الخمس المميزة لي كهدية وهي ستروين من النوع الخاص . وكانت السيارات الخمسة موزعة على النحو التالي : واحدة للرئيس والثانية للنائب صدام والثالثة للسيد عماش والرابعة للسيد حردان والخامسة لي ، وبتفكيري المتحفظ اقترحت ان استلم السيارة من الشركة العامة للسيارات عبر صك من القصر بقيمتها سلم الى السيد مدحت الهاشمي مدير كراج رقم 3 الحكومي ، وقد يكون السبب في هذا النوع من التصرف والتفكير عقدة مفادها أنني لا "اشترى ولا أباع" . وقد يكون الصك وقيمته تقارب 4500 دينار عراقي وهو ما يعادل 19000 $ جزءاً بسيطاً لقاء خدماتي

طبية لهم ، وكان لي ما أردت غير أن ذلك بالطبع أثار الغيرة والحسد
في نفوس الكثيرين .

على ذكر الهبات والتعويضات المالية صادف أن اتخذت قرارًا بالسفر
لحضور مؤتمر عالمي للتدرن في أميركا في حزيران من سنة 1969م ،
مررت بالرئيس البكر للسلام والاستئذان وحينها طلب مني أن أحاول
جلب عدد من الزملاء العراقيين المتواجدين في أميركا وإقناعهم بالعودة
إلى العراق ، وسألته ببراءة : ماذا أقول لهم ؟ فقال : كما شاهدتنا
وعرفتنا وسنعطي كل ذي حق حقه ونمنح كلاً منهم ما يستحقه من لقب
مهني أو تدريسي ونسهل له أمور السفر ، ثم قدم لي ظرفًا يحوي نقودًا
حسب ما اعتقدت فاعتذرت بأدب وخجل واضح عن قبوله لكنه أصر
على ذلك بأنني قد احتاج إليه في دعوتهم على العشاء أو الشاي وأجبت
بأن لدي من المال والحمد لله ما يكفي وان فعلت ذلك سيكون على حسابي
الخاص وسأكون سعيدًا أن أقوم بذلك . بدا الامتعاض واضحًا في ملامحه
وليس في كلامه ثم دخل عليه مباشرة وزير الصحة الدكتور عزت
مصطفى الذي عاتبني بعد ذلك على ما بدر مني تجاه الرئيس حيث وجده
حينها ممتعضًا بعينين حمراوين دامعتين كما اخبرني ، فقلت له إنني لم
افعل ما يغضب ولم أسيء التصرف ولم أتفوه بما لا يليق وكل ما فعلته
أني اعتذرت عن عطية مالية فقط ، وأجاب السيد الوزير بأن هذه عادة
متبعة وليس فيها ما يضر أو يهين .

أما نتيجة الرحلة إلى أمريكا فتكللت بالنجاح وإقناع عدد لا بأس به ومن
احسن الكوادر الطبية بالعودة إلى العراق ، وبعد زيارات لواشنطن
وبالتيمور وشيكاغو وديترويت وسان فرانسيسكو ولوس انجلوس ، حيث
عينوا في مدينة الطب وبتسهيلات خاصة ، وقد مهدت رغبة الرئيس هذه

لتكوين لجنة برئاسة وزير الصحة الدكتور عزت مصطفى وكُلفتُ بمقابلة الأطباء حسب ما سمي بنظام ذوي الكفاءات لاستقطاب أطباء من إنجلترا وأمريكا ، وذهبت لجنة أخرى وكنت ممثلا فيها عن الطب الباطني يصاحبني الدكتور كمال السامرائي والدكتور عبد اللطيف البدري والدكتور تحسين معلة إلى مدن في ألمانيا لنفس الغرض في أوائل شهر شباط سنة 1975م .

كان الرئيس البكر كثير الاهتمام بالطب واعتقد انه كان يحب الأطباء بصورة عامة ويجلهم ويحترمهم ، وقد قال في اجتماع كان وزير الصحة حاضرًا فيه ما معناه : إنني كرئيس للجمهورية أستطيع أن أصدر أمرًا لأي شريحة من المجتمع بأن يخرجوا حفاة إلى المطار – على سبيل المثال – لكن لا يمكنني عمل ذلك مع الأطباء ، مما يشير الى منزلتهم الخاصة عنده واحترامهم .

لم يكن السيد البكر من ذوي الرتب العسكرية العليا حين تسلمه المسؤولية ، وقد اختلفت انطباعات الناس عنه ، فهو يتسم بالأتزان والهدوء في أغلب الأحيان ، وقد تثيره بعض الأمور فتخرجه عن سلوكه المعتاد ، معظمها يرجع الى أشغاله ومسؤولياته . يُكثر من التدخين دون حدود ، ولا أعرف عنه فيما يخص تناول المسكرات والمهدئات الا ما أعطيه نادراً . وكان السيد البكر سماعاً للكلام من كافة المصادر غير أنه من الصعوبة عليه تقييم كافة حقول المعرفة التي يسمعها ، في حين كان له إلمام عميق بالتاريخ الأسلامي وتاريخ الخلفاء بشكل خاص .

يصفه البعض بأنه ساذج وبسيط . نعم انه بسيط في حياته ومأكله وشديد التواضع ، لكني أشعر أنه يجلس على مناجم من الأسرار المهمة والكثيرة ، ولا شك أن منها ما يهزّ المضاجع . لم أطلع حتى على القليل منها ،

ولا شك أن الجزء الكبير يرجع الى مختلف الصراعات بين الجهات المسؤولة عن قرارات مصير البلد .

واذا ما تركنا الجانب السياسي كما ذكرت سابقًا ، فان ولعه الخاص في الطب والطبابة جعله يولي الكثير من التركيز والأهتمام والعمل على مساعدة كل مكتشف وباحث في الأمور الطبية . وقد استغل بعض المدعين والمشعوذين هذه الصفة للقفز في الحصول على مناصب شهيرة ومنافع شخصية مما انعكس سلبيًا وبشكل واضح على القيادة في كلتا الفترتين البكرية والصدامية .

ولا يمكن الا ان يتحمل الرئيس جزء من المسؤولية من جراء هذه العمليات والممارسات كعلاج السكري بحقن اجسام ديدان مسحوقه من قبل احد رجال الشارع واختراع علاج للمفاصل وانشاء مركز البكر للحوامض الامينية والسرطانات وكثير غيرها في الازمان اللاحقة والتي يقع كاهلها على مسؤولي تلك الفترة ، وكم تمنيت كتابة هذه من أحد الزملاء المواكبين لها لتلك الممارسات للفائدة وليس للمحاسبة ، وقد استمرت هذه الممارسات وهي بقع سوداء الصقت بالطب العراقي ذي السمعة النظيفه والعالية .

ولا اتمكن من التنصل بالأعتقاد أن كانت هناك فجوات بين الرئيس ونائبه وبين ما شاهدته على الأقل في موضوع المخابرات والموقوفين حيث لمست ذلك من خلال معاملة البزاز كما أسلفت وغيره . وقد تكون هذه الفجوة كبرت وتوسعت عبر السنين منذ بداية استلام مسؤولية جهاز حنين الى ضابط ليس من الكادر ولكنه يتسم بذكاء حاد وجسارة ملحوظة حيث استحوذ على هذا الجهاز وأجهزة أخرى أكثر تعقيدًا وأوسع امتدادًا ، وبعد تقدمه بمراتب الحزب العليا أعطاهم الوعد " لا انقلاب ولا مؤامرة

بعد الآن" وقد تلمست ذلك وعرفته عندما حاولت مساعدة اثنين من الموقوفين حيث طلب السيد البكر من نائبه المساعدة في الموضوع .

بعدئذ بدأت عملية القصم والتهميش حيث قُتل حردان التكريتي و صُفي عبد الكريم الشيخلي وأُبعد عمّاش و أناس آخرون . كما بدأ مشروع ترصين الأمور العائلية بالزيجات المختلفة مما كبّل المسؤولين برباط متين والتزام عائلي. وقد رافق هذه الأمور ترصين موقع السيد النائب بسبب تاميم النفط.

لم تكن هذه الأمور نهاية الطريق ، بل كانت هناك مراقبة شديدة على كل تحرك وكلام حتى داخل منزل الرئيس الخاص الى أن انتهت الأمور بمفاجأة غير متوقعة في كتاب التنازل عن الرئاسة ، وهو من تأليف وتلحين المهندس الأول في 1979 وحتى نهاية البكر عام 1982 ، حيث قال حسين كامل في مؤتمره الصحفي بعمّان ان النظام اشترك بتصفية الرئيس البكر . فهل تعتبر كل هذه الأمور من باب السذاجة أو البساطة أو حسن النيّة أو طيبة القلب أو صلة الرحم أو هي حقيقة رهيبة وقعت ومن امراضه المتعدده وتغيير كادره الطبي كلها هذه تركت ثغرات ونوافذ للشكوك المختلفة أترك تقدير ذلك للسادة القراء الذين شاركوني الكثير بالأطلاع والتواجد خلال تلك الفترة .



وزير الصحة د. عزت مصطفى، رئيس مدينة الطب د.مردان علي مع مؤلف الكتاب

ولا يمكن التنصل من وضع المسؤولية واللوم العميق على الرئيس البكر للأنصياع الأعمى والمطلق لأحد أقربائه لسنين طويلة من زيادة متواصلة وامتداد في المسؤوليات أدت الى تهاوي رئاسة الهرم بتخطيط دقيق ومرسوم.

ومن الأنصاف القول أن أولاد البكر وأقرباءه لم يتمتعوا بامتيازات غير اعتيادية كما حدث لمسؤولين آخرين .

يبدو لي أن السيد الرئيس البكر قد أخذ عني انطباعًا لا يتزحزح – وقد يكون خاطئًا – بأنني من أحسن الأطباء ، وقد سأل وزير الصحة عن إمكانية تدريب وخلق ما يقارب الخمسين طبيبًا على شاكلتي حتى لا يضطر من يحتاج من المرضى إلى هذا الانتظار الطويل . وأجاب الوزير ضاحكًا بأن هذا غير ممكن وان السنين والخبرة والدراسة تلعب دورها وقد يكون الحظ والسمعة قد لعبت دورًا فيما وصلت إليه وما احتله من مكانة لدى الناس.

ووجهني السيد البكر مرة بأن أدعو إلى القصر الجمهوري نخبة من الأطباء لتدارس أمور الطبابة وتحسينها في العراق ولم يحدد لي أي شروط ، فقلت له إن أحد الذين أفكر فيهم من (ذوي اللون الأحمر) وحين سألني ماذا عنيت بذلك أجبته بأنه ميوله يسارية فرد قائلاً : ألم تعرفنا لحد الآن ، لا فرق عندنا ولا حدود وليأت كل من تعتقد بجودة مستواه . مما لا شك فيه أنني قلت ما قلت بحسن نية وصفاء سريرة وكان هدفي خدمة الطب لكن هذا جلب لي الكراهية وعدم الرضا وربما اضمر لي البعض العداء خصوصًا وان هذا حدث في الوقت الذي لا يمكن فيه استيعاب كل الأطباء. واستمر الرئيس في تركيزه واهتمامه بالطب وتحسينه . وقد اقترحت إنشاء كلية طب ثانية (سريرية) على غرار ما

يجري في العالم المتحضر وفي الدول المتقدمة طبيًا مثل أمريكا ، وهي كلية تدرس الطب لأربع سنوات بعد ان يكون الطالب قد درس العلوم الأساسية في مكان آخر وقد تكون كلية الطب الأم . كما اقترحت ان تكون الدراسة السريرية في مجمع يحوي عدة مستشفيات منها : مستشفى السلام ومستشفى نسائية قريب منه ومستشفى عام آخر. وفعلاً أخذنا الصور للموقع واشتغل المهندسون وظهرت أخباره في الصحف المحلية وبصور ميدانية ولم يخرج هذا المشروع إلى حيز التنفيذ بالرغم من قبول ورضى وزارة الصحة عنه لأسباب أجهلها حتى الآن . من جيئتي بقيت في حركة دائمة وفعالة طيلة



البكر يزور مدينة الطب

السنين أشارك أو أرأس اللجان المهمة لتأسيس وحدة العناية المركزة للقلب وجهاز الدوران وللتنفس ودورات تدريبية ودراسة الدبلوم ، وقد بدأت بمعاونة زملاء آخرين دورة الـ MRCP والتي أظهرت نتائج

أبهرت الكثيرين وحققت أعلى نسبة نجاح في العالم بما فيــه بريطانيــا بسبب تنظيمنا المتقن ودعم السلطة غير المحدود لنا .

كارثة التسمم بالزئبق

الكوارث بالعراق كثيرة ومختلفة السعة والتأثير ولعــل زوبعــة التســمم بالزئبق كآفة وبائية هبت على العراق الحبيب في سنة 1971 - 1972 .
وقد اعتبرت أكبر كارثة من هذا النوع في العالم . صحيح أن هناك بقاعاً أخرى في العالم قد تعرضت لهذه الآفة كالباكستان وأفغانستان وأقطــاراً في أمريكا الجنوبية وحالات أخرى في اليابان ، ولكنها ليست بهذه السعة ولا بشدة التخريبات الجسمانية أو تعطيل عضو أو أعضاء مماثلة وحجم من يحتاجون للمساعدة في التمريض والاطعام والحركــة والعــلاج إن وجدت ما لا يتوفر في العائلة الواحدة المنكوبة حيث أصيب أكثر أعدادها بالتسمم كما سنأتي على ذلك تباعاً .
وقد يحدث التسمم بالزئبق كمرض مستوطن في بعض المناطق القريبــة من المعامل ويكون الزئبق هو أحد نفاياتها .
لقد حدث التسمم بسبب الاهمال ولم يكن مقصودًا و شــكوا و اســتبعدوا وجود سبب سياسي !؟ .
فقد انتشرت اشاعات بأن هذه الكارثة من صناع الحكــم القــائم لإلهــاء الشعب العراقي بها والحيرة بأكلهم ومشربهم والخــوف مــن الاصــابة وتجنبها والعلاج. ولو أن الكارثة لم تنتقل الى المدن وكانــت محــدودة بالأرياف والفلاحين وأستطيع أن اكرر واقول من موقع مســؤولية فــي اللجان أنها كانت عفوية وكان قصور الاعلام والتثقيف قبل توزيع مــن قبل السلطات يتحمل الجزء الكبير من المسؤولية .

لقد وزعت حبوب الحنطة والشعير المعفـرة بـالزئبق لتحسـين انتـاج المزروعات والناتج الجديد وكان الخلل بعدم التوعية الكافيـة للفلاحـين وعوائلهم عن هذه المادة والتي وزعت مجانيـاً . ان التوعيـة الجزئيـة والسطحية للفلاحين البسطاء حيث بدأوا بتجربتهم البدائية لفحص سـمية هذه البذور فأطعموها الى الدجاج وحيواناتهم ونظراً لعـدم ظهـور اي علائم للتسمم بعد فترة ايام او اسابيع قصيرة اطمأنوا لسلامتها واعتقـدوا ان التحذير كان من قبيل " الغش واللعبة" من الحكومة حتى لا يستعملوها كطعام .

ولجهلهم وعدم توعيتهم ان هذا النوع من التسمم قـد يسـتغرق اسـابيع طويلة او حتى اشهر ليظهروا اثره وهي الحقيقة العلمية المؤكدة . ومـا حصل وللفقر المدقع ولسوء الموسم السابق لحاصل الحبـوب انخـرط جميع الفلاحين بطحن وخبز هذه البذور ومما لا يخفى علـى المـواطن العراقي فإن الخبز هي المادة الغذائية الرئيسية للفلاحين والطبقة الفقيرة . وقد ثبت لنا أن شدة التسمم كانت بنسبة طردية مع عدد الرقـائق التـي تناولوها وما هي الا اسابيع وانهارت النداءات والطلبات على العيـادات والمستشفيات بالمناطق التي وزعت بها تلك الحبوب وكانت بشكل رئيسي في الألوية الجنوبية والوسطى وكركوك .

بدأت الأعداد بالعشرات وقفزت الى المئات اكثر من ذلك وهي اكثر من ان تتحملها المؤسسات الطبية ، خصوصًا بدون التهيؤ لهذه الكارثة وقلـة الادوية المتوفرة وضعف فعاليتها وضعف الخدمات التمريضية وكانـت اكثر العوائل المنكوبة بأمس الحاجة لها .

قامت وزارة الصحة بجهود مشكورة حيث حددت الحالة ومناطقها وأجرت زيارات ميدانية وجمع ما امكن من الحبوب المعفرة حيث جرى اتلافها وجلب ما توفر من الآلات بالسرعة الممكنة .

شكلت لجان كثيرة ومنها اللجنة العلمية التي تشرفت برئاستها واللجنة السريرية التي كانت برئاسة الاستاذ الدكتور سالم الدملوجي ، استقطبت هاتان اللجنتان كافة الكفاءات من أطباء و أباطرة و أطباء وقاية و علماء في الذرة وإداريين . كانت هذه أكبر كارثة عالمية ولم يكن بالامكان الامساك بكافة خيوطها بشكل مرضي .

أجري الاتصال بدوائر وأوساط عالية كدائرة منظمة الصحة العالمية وجامعات وعلماء مشهورين منهم جامعة روجستر بنيويورك وكان اتصالنا بها و بدورنا بالعلماء و المختبرات و أهدافنا " المعرفة " "KNOW HOW" .

وبعد الهدوء النسبي للعاصفة في العراق زرتهم كأستاذ زائر لثلاثة أشهر فقط لتتبع هذه الكارثة وتبعني الاستاذ سعدون التكريتي لأشهر . استمر علماؤهم الامريكان يزورون بغداد على الدوام لأشهر طويله وقد ظهر من هذا التوافق والتعاون أهم بحوث هذه الآفة في العالم والتي أصبحت مصادر عالمية لمختلف أوجه هذا المرض المتعدده .

لقد بلغ عدد المصابين عدة آلاف والوفيات عدد كبير جدًا والعطل والآفات أدى من أكثر من ذلك .

ومن المؤسف للجمعيات العلمية والتي اشتغلت بالتسمم لسنين ومن اللجنة العلمية والسريرية قد حلت بنهاية السبعينيات بأمر من مجلس قيادة الثورة. كان توقع اللجان والدوائر العلمية كبير جدًا وثمين جدًا فيما لو استمر تتبع المرضى لهذه الآفة بالنظر للمدة الطويلة للحياة لهذه المادة

وبقائها في جسم الانسان أولاً ولتتبع الحالات التي اصيب بهـا الانسان التي تأخذ وقتـا طويلاً بالدرجة الثانية والتـي سـتعود بالفائـدة علـى المرضى ولجمع معلومات ثمينة جداً لدورة هذا السم الذي يكثر استعماله بالزراعة .

كانت هذه نكبة بكل ما للكلمة من معنى نظرا لكثرة الوفيات والعاهـات والعطل الدائم وما سببته من أضرار اقتصادية ومعيشية واجتماعية .

Andrei Grechko
Андре́й Гречко́



الجنرال كريشكو

الجنرال كريشكو في بغداد

وهنا لا بد لي أن أتطرق إلى حادثة طريفة حدثت في أوج العلاقة بين العراق والاتحاد السوفيتي السابق ، حيث زار العراق ثالث أهم شخصية في الدولة على رأس وفد كبير وهو المارشال كريشكو وزير الدفاع السوفيتي ، وقد أصيب هذا الرجل بمرض مفاجئ وأظهر الجانب العراقي اهتمامًا استثنائيًا وخاصًا بالرجل وأرسلوا له طبيبًا عسكريًا برتبة عالية والذي لم يلق قبولاً حسناً من المريض . ونظرًا لاهتمام الطرف العراقي به أمر الرئيس البكر بإسناد علاجه لي وذهبت لعيادته في أحد القصور وكان يجلس في غرفة الانتظار العميد حماد شهاب وزير الدفاع والدكتور عزت مصطفى وزير الصحة ، أما في الغرفة التي يرقد بها المارشال فقد وجدت طبيبته الروسية الخاصة .

استمعت إلى تاريخ المرض وقمت بفحصه فحصًا دقيقًا وشاملاً ووصفت له الدواء وشرحت لهم الموقف وطمأنتهم بأن الأمور ستتكشف في غضون 72 ساعة بإذن الله ، وفي زيارتي الثانية له وجدت الطبيبة تعالجه بوضع قدميه في صحن من الخل – وهي ممارسة غير مألوفة في الطب الغربي– ولم أكن متأكدًا من أنه استعمل الأدوية التي وصفتها له كما حدث تلكؤ في اطلاعي على نتائج فحوصه والتخاطيط الكهربائية للقلب ، ولأهمية هذه الشخصية في روسيا جرى إرسال وفد كبير مكون من رئيس أطباء وأكاديميين وطبيب عسكري قدم بطائرة خاصة . شرحت للوفد الموقف وقدمت لهم ثلاثة خيارات للحد من قلق جميع الجهات ، وكانت على النحو التالي :

يسر الجهة العراقية أن تخصص للمارشال جناحًا خاصًا في إحدى المستشفيات مجهزًا بالكامل بكل ما يحتاجه فريقه لمعالجته ويكون المريض تحت مسئوليتهم المباشرة .

ان نعمل معاً كفريقين وتؤخذ القرارات بالاشتراك والموافقة الكاملتين .

أن يكون المريض تحت رعايتي وبمسئوليتي مرحبا بكل اعتراض أو نقاش علمي .



المارشال كريشكو مع النائب صدام حسين

وكان النقاش هادئا ووديًا وعلميًا وموضوعيًا واختار الفريق الروسي البقاء في العراق وتركوا لي الأمر بالكامل ومن جهتي قدمت لهم التطمينات وأخبرتهم ان الحالة ستتحسن وان المرض سينحسر بإذن الله

في غضون المدة التي حددتها سابقــاً، وأرسلوا لي بعضاً من ســجلاته الطبية "السرية" سابقــاً .

نال هذا النقاش استحساناً كبيرًا من الجانب العراقي ووزير الدفاع ووزير الصحة وأعجبوا بتصرفي وشكروني على سلوكي اللائق وخروجي مــن هذا المأزق ورفع الكابوس الذي كان يثقل كاهلهم . كمــا أرضـــى هــذا القرار القيادة السياسية وسارت الأمور كما كان مرســومًا لهــا وســافر المارشال إلى بلاده ، وبعد فترة قصيرة زارني في بيتي وفد من السفارة السوفيتية ومعتمد من السفارة مكون من أربعة أشخاص مقدمًا لي الشكر والامتنان لخدماتي الطبية وهدية رمزية روسية إضافة إلى هديــة ثانيــة صندوق من الشراب الروسي أرسلت بمناســبة رأس الســنة ؛ أرســلها المارشال من روسيا .

كانت هذه الحوادث تدور وأنا تحت الإنذار ، مواصلاً جهودي فــي أداء خدماتي الطبية والزيارات المتكررة للرئيس .

الاستاذ طه محي الدين

وفي الوقت نفسه أخذت علاقتي تتطور وتتوثــق مــع نائــب رئــيس الجمهورية السيد طه محيي الدين بحيث أصبحت طبيبه الخاص وأزوره بانتظام ، وقد وجدته رجلاً كثير الالتزام وذا ثقافة عالية وأدب جم ، ولم يتسبب بأي أذى لأي شخص حسب علمي . عرفته عن كثب في رحلات وأسفار رئاسية متكررة ومنها على سبيل المثال : زيارته لكوبا ولقاؤه مع الرئيس فيديل كاسترو في يوم العمال العــالمي ، وزيارتــه لأفغانســتان ولقاؤه مع آخر رئيس لها وهو الرئيس محمد داود خان ، وزيارته إلـــى إيران ولقاؤه مع الشاه قبل سقوطه . إضافة إلى ســفره لمــؤتمر عــدم الانحياز العالمي في كولومبوس في سيريلانكا. وصحبت الأســتاذ طــه

محيي الدين في زيارة أخرى إلى موريتانيا لزيارة الرئيس الموريتــاني . وكان يصاحبه وزير الخارجية الاستاذ الجبوري وبطريق الصدفة تواجد شاعر العراق الأكبر محمد مهدي الجواهري هنــاك وحضــرنا أمســية مختصرة له .

ولا يفوتني أن أذكر أنني استدعيت لأستشارة طبية للسيدة بختياري بعـد اغتيال زوجها في العراق .



طه محي الدين معروف

كانت علاقتي ودية ومتينة مع جميع الوفود من وزراء ومستشارين وعائلاتهم ولم أتقاض في هذه الزيارات أي تعويض أو مخصصات مالية . وكنت أُدعى في بغداد إلى الحفلات التي تنظمها السفارات في الأعياد الوطنية أو المناسبات القومية الخاصة بها وكثيرًا ما كانت الكاميرات توجه نحوي حتى نصحني بعض الأصدقاء بالحذر موضحًا لي ان أحد المصورين من مديرية الأمن العامة ، ثم امتنعت عن التقاط الصور أو حضور هذه الحفلات خاصة بعد صدور مرسوم يجبر الموظف بالإخبار عن هذه الدعوات .

الحاج خير الله

شخصية أخرى من الرجال المقربين من الحكم والتي تستحق كثيرًا من التعليق والتحليل وهي شخصية "الحاج" خير الله طلفاح ، وقد عالجته وزوجته وشقيقته السيدة والدة السيد النائب ، وكانت الصلة مهنية أصولية وطبيعية . وقد قدم لي الأستاذ طلفاح مرة رسالة شكر وقطعة قماش حرير (شعري للقمصان) لكن هذا الشعور الودي تبدل فجأة ولا اعرف ما هو السبب حيث سمع أحد زائري مجلسه الخاص أو ديوانه المشهور ملاحظات لا تدل على الود نحوي . ومن يعلم ربما ينطبق ما حدث مع قوله تعالى : "يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين" . فهل كان من سمع من الذين آمنوا أم هل اعتقد بأن الواشي ليس من الفاسقين ؟ . علم ذلك عند ربي.

يجرني الحديث عن هذه العلاقة للحديث عن حدث آخر كبير ترك بصمة كبيرة على حياتي والذي سآتي على ذكره في فصل أو فصول لاحقة .

لقد تركت مسؤولياتي الكبيرة القليل من الوقت لبيتي وعائلتي وواصلت سيرتي المتشعبة في طبابة رئاسة الجمهورية والسيد النائب وكثير من الأقارب والمتملقين علاوة على المستشفى وكلية الطب والتدريس والعيادة الخاصة بعد الدوام ، وكنت التقي الرئيس البكر منفردًا أو مع لجنة من الأطباء حسب طلبه ونتطرق إلى هوامش بعض الأمور بشكل سطحي وكان يستمتع بالنقاش . وفي أحد الأيام أعلن عن تعيين عميد لكلية الطب وكان من الجيل الشاب وبمرتبة مساعد أستاذ وبالرغم من علاقتي الشخصية الطيبة به (العميد) إلا ان ذلك لم يمنعني من الإدلاء بدلوي ثانية في هذا الموضوع قائلاً للسيد الرئيس ان هذه بادرة غير مسبوقة ولا تتماشى مع الأنظمة والتعليمات أو العرف الجامعي حيث ان العرف يقضي بأن يكون العميد بدرجة أستاذ ويستحسن ان يكون متمرسًا ليحظى بهذه المرتبة. لم يكن الرد مقنعاً لي وقد يكون كذلك للآخرين لكنني لم أؤمن ولا أعتقد أن يسوغ ذلك نظام سياسي أو نظام الحزب الواحد وقد قلت في حينه ان الرمز العلمي كرئيس مؤسسة علمية لا يتعارض بالضرورة مع حكم سياسي بلون خاص ، كما ان إدارة مؤسسة علمية لا تتعارض مع الخط السياسي وقد أكون مخطئاً في هذا الرأي أو التفكير. سبق للجامعة الاردنية والتي هي أحدث عمراً من جامعة بغداد أن تعاقدت مع استاذ طب من العراق لملئ عمادة الطب عندهم حيث لم يتوفر عندهم بمرتبة الأستاذية .

تكررت مثل هذه الممارسة بتعيين رئيس لجامعة بغداد ممن لم يحصل على لقب الأستاذية كذلك ، وكان موقفي في الحالتين وفي أي حالة أخرى منطلقاً من مصلحة الكلية الطبية واحترام التقاليد الجامعية وليس أي شيء آخر.

التفرغ العلمي

قد أدركت من مشاهداتي الأخرى ان هناك هدراً للإمكانيات والعطاء من قبل الهيئة التدريسية لكلية الطب والطلبة وأن مما يحسن المستوى العلمي للكلية أن يكون هناك نظام للتدريس والتفرغ ، استطعت بالتعاون مع بعض الاخوة والزملاء إخراج هذا المشروع إلى النور وكانت الجهات الحاكمة تدعمنا في ذلك . كان النظام اختياريًا وليس إجبارياً في المعاهد والجامعات العالمية حيث يدفع للمتفرغ علاوات إضافة إلى إفساح المجال له لمعالجة عدد محدد من المرضى حتى لا تنقطع صلته بمرضاه ، ومن الأجور التي يدفعها هؤلاء يستقطع قسم يعطى للعضو المتفرغ وقسم آخر إلى هيئة التفرغ ، وكنت وحسب التوقع أول المتفرغين رغم ان ذلك كلفني الكثير من الخسائر المادية والمعنوية بما فيها تفكيك العيادة المكتظة بالمرضى وبيع أجهزتها ومن ضمنها جهاز الفحص الشعاعي وتجميد باقي الأجهزة ، والأصعب من ذلك فقدان ملفات المرضى وهي غالية علي من الناحية العلمية .

أرادت القيادة تعويضي عن خسارتي أو بعضها لكنني اعتذرت مرة أخرى بأن لدي ما يكفيني ويتيح لي الاستمرار في الحياة بمستوى مقبول ولا أرى موجبًا للتعويض عن خدمة وطنية قدمتها . كانت ردود فعل زملائي وأصدقائي على التفرغ مزيجاً من عدم الارتياح وعدم الرضى والمقاومة أو الرفض للمشروع رغم انه كان اختياريًا وليس إجباريًا ، ولكن قد ينظر لمن يرفض التفرغ بأنه طامع من الناحية المادية ويحرص على العائد الذي سيفقده عند التفرغ . وفي اعتقادي ان المشروع كان ناجحًا وقد أدى ما كان يرتجى منه حيث وفر وقتًا للقراءة والمتابعة

العلمية والكتابة والبحوث وقد علمت بعد سنوات أن هذا المشـــروع قـد تعرض لتعديلات وتغيرات وتفكك تدريجيــًا .

واستمر التقدم والتحسن في الدراسات الطبية وخدماتها في مدينة الطــب وتم تنظيم دراسة ما بعد التخرج ، والدبلومات ، والقسم الأول من دراسة MRCP كما أسلفت .

في تموز 1973 كنت خارج العراق ولما عدت علمت بسفر السيد البكر إلى روسيا وصحب معه الدكتور محمد علي خليل ، وفي يــوم زلــزل العراق ثانية بحركة ناظم كزار والتي يعرف أحداثها الكثيرون وقد قُتــل فيها الوزير حمّاد شهاب وأصيب الوزير سعدون غيدان وانتهت إلى مــا انتهت إليه .

في هذه الفترة تعززت قوة وصلاحيات السيد النائب على نحو ملحوظ في الوقت الذي انحسرت فيه قوة ونشاط وتأثير السيد البكر ، وقد تضافرت في ذلك عدة عوامل منها : مرض زوجته ثم وفاتها ، ومرض شقيقته ثم وفاتها أيضًا ، وحادثة وفاة صهره مظهر المطلك التي ما يزال الغموض يحيط بها إلى الآن ، وصعوبات مع نجله الصغير محمد انتهت بوفاته في حادث سيارة مؤلم ، هذا ما أعرفه ، وما لا أعرفه قد يكون أكثر بكثير .

صاحبت هذه الأحداث أموراً تلفت النظر منها التركيــز علــى تحســين وتوثيق العلاقات والروابط العائلية بقدرة باهرة لمهندس قدير حيــث تــم زواج الابن الأكبر للرئيس هيثم البكر بابنة الحاج خير الله طلفاح ، شقيقة زوجة السيد النائب ولم يستمر هذا الزواج طــويلاً وعقــب الانفصــال تزوجت هذه السيدة أحد أشقاء السيد النائب – وطبان إبراهيم الحسن – ، وتزوجت شقيقتها الأخرى من شقيق السيد النائب وهــو الســيد بــرزان التكريتي ، كما تزوج الرائد عدنان خير الله الذي سيصبح فيما بعد الفريق

ووزير الدفاع من ابنة السيد البكر ، وتزوج السيد منذر المطلق ابنة البكر الكبرى ، وتزوج السيد حاتم عبد الرشيد وزير الصناعة – بعدئذٍ – البنت الأخرى للبكر إضافة إلى زيجات أخرى أجهلها في الوقت الحالي .

رئاسة قسم الطب

لم يفتر اهتمام الرئيس البكر بالطب وتحسينه وتقدمه ، وقد شارك في هذا الاهتمام وعكسه عميد كلية الطب الدكتور تحسين معلة الذي تربطه بالرئيس صلات قوية حزبية أو غيرها ، وكان العميد يكن لي الحب والاحترام ويقدر كفاءاتي العملية وإنجازاتي وما أديته للمهنة والكلية عارفًا صلاتي المهنية بالقيادة . وفي أحد الاجتماعات توجه إلي قائلاً : يا فرحان يكفيك جلوسًا في المقاعد الخلفية موجهاً الانتقادات وطالبًا الإصلاحات بينما يحتم عليك الواجب أن تأخذ رئاسة قسم الطب الباطني . قبلت هذا ـــــ على مضض ـــــ فترة الرئاسة بالمناسبة لمدة سنتين .

صدر التعيين "ببطاقة بيضاء" واعني انه بإمكاني أن اطلب ما أشاء ضمن الحدود وسوف تنفذ كل طلباتي وكانت الطلبات بالطبع هي الطلبات العلمية المعهودة .

في إحدى المرات طرحت قضية طالب حزبي لم يؤد امتحان الصف الرابع وأرادوا رغم ذلك إنجاحه وصعوده إلى الصف الخامس ، كنت عضواً بمجلس عمادة الكلية الطبية ممثلاً للطب الباطني .

كنت المعارض الوحيد وانسحبت من الجلسة ، جُمد الموضوع مؤقتاً إلى أن وجدوا له حلاً آخر بعيدًا عن مجلس الكلية الطبية . وقبل انتهاء رئاسة الفرع وصلني قرار بتعيين أحد الزملاء في فرع الطب ودهشت أن صورة من هذا الكتاب أرسلت إلى رئيس المخابرات العسكرية !.

وعلمت بعدها أن الأخير هو شقيق الزميل المعين . كانت هذه خطوة لـم اشهدها سابقـاً ، ولم استسغها بالمرة وأرى أنها تتنافى مـع الخطـوات المتبعة في الجامعة وأصولها. أخذت الكتاب لمن كلفني برئاسـة الفـرع ببطاقة بيضاء "عميد كلية الطب" وقد أثار الأمر استغرابه أيضًا وطلـب مني بضعة أيام للتحري عن الموضوع ليأتي بعدها ويخبرنـي أن هـذا الإجراء صدر عن صديقك ويعني الرئيس البكر ، وعلى إثر ذلك قدمت استقالتي من رئاسة الفرع .

كان السيد البكر يمر بحالات نفسية مختلفة كما هو متوقع من رجل فـي منصبه ويحمل مسؤولياته ، وكانت درجة تدخينه تتبع الظروف التي يمر بها واعتقد أن التدخين كان عقبة كأداء أمام شفائه وتطور صـحته إلـى الأفضل وقد فشلت في منعه من التدخين وان كنت نجحت أحياناً فـي أن اجعله يقلل منه . وقد ساعدت عوامل أخرى مثل مرض السكر وضغوط العمل ومسؤولياته إلى حدوث أزمة قلبية بسيطة (ذبحـة صـدرية) ؟ يصاحبها عارض عصبي في مرة أخرى نتيجة لتصلب الشرايين .

اشترك في علاج هذه الحالات عـدد كبيـر مـن الأطبـاء العـراقيين واستشاريون من مختلف العالم ، وتقرر سفر السيد الرئيس إلـى فرنسـا لمتابعة العلاج وقد استبعدت من السفر معه بعد أن هيأني هو نفسه لهـذا السفر وسافر معه أستاذ الأمراض العصبية في جامعة بغداد الذي كنـت استعين به في هذه الحقول لمسؤولي السلطة عند الحاجة ، وكان بصحبته على ما اذكر الدكتور صادق علوش . ولم يغير ذلك شيء فـي العلاقـة بيننا واستمرت مؤازرتي الطبية له بعد عودته ، ولم يغفلوا جلب هديـة لي. وهنا لا بد أن أتطرق إلى صفات السيد البكر من خـلال ملازمتـي الطويلة له . كان رجلاً هادئـاً ومتزنـاً بصورة عامة ، ولكنـه سـريع

الغضب والثورة عندما يصل إلى علمه شـــيء مهـــم لا يعجبـــه . كـــان متواضعـــاً ولديه نية صادقة لخدمة بلاده – حسب اعتقادي – . يحتـــرم الطب والعلماء ومولعًا بالطب إلى الحد الذي كان يهيئ نجلـــه الصـــغير محمد لأن يكون طبيبًا ولم تتحقق هذه الفكرة للأسف . كان حبه للأطباء خالصاً ومطلقـــاً ويحاول رفع الكلفة بينه وبينهم ، وهذا شيء معـــروف عنه وكان يصر على مرافقتي إلى باب البيت وأحيانـــاً إلى سيارتي حين اخرج من عنده . وفي أحد الأيام أبديت إعجابي برائحة الشـــاي الـــذي شربته لديه فأخبرني أنه متأتٍ من أوراق العطر التي أضيفت إليه وعنـــد انصرافي أصر أن يحمل (النبتة) بيديه وبنفسه ليضعها في سيارتي ولـــم تنفع معارضتي القوية في منعه من ذلك .

الرئيس البكر والطب

كان الرئيس البكر مخلصًا ويسعى جاهدًا لدعم كل من يـــأتي بفكـــرة أو مشروع يتعلق بالطب حتى من عامة الناس ، وهنالك من ادعى بأن لديه دواء أو مركب ليس فقط لداء السكر بل لأكثر من داء . وأخبرني أكثـــر من مرة أن استمع لهم ولما يقولوه وشعاره في هذا أن الحكمة قد تأتي من بعض من لا نعتقد أو نتوقع أنه مصدر لها ، وقد عملت بهذا الأمر . وفي مرة من المرات حدثت فضيحة مع بعض هؤلاء المدعين حيث بدأ بحقن بعض المرضى بمحلول بعض الديدان مدعيـــاً أنه يشفي داء السكر ثـــم حدثت اختلاطات ومضاعفات كثيرة عند المريض الذي حقن به ، حـــدث ذلك بغيابي عن البلد وبإجازة وبشكل عام لم يتبلور أي من هذه الأفكار والمركبات إلى ما يفيد .

تهافت العلماء والمخترعون والباحثون على قصر الرئاســـة مباشـــرة أو بواسطة وزارة الصحة وأورد هنا مثالين أولها لجـــامعي مـــن جامعـــة

البصرة ادعى أن لديه علاجاً لمرض السرطان ، واستمعت إليه بعناية فائقة وعميقة وأخبرته أن أبواب المختبرات ومدينة الطب مفتوحة أمامه لإجراء البحث العلمي المدروس على أن يختبرها تجريبياً على الحيوانات ورشحت له الدكتور خالد القصاب ليكون الطرف الثاني في مشروعه وكان هذا نهاية دوري ودور الدكتور القصاب ، وهو رجل معروف باختصاصه ومنشوراته عن الاورام ، وسمعنا بعد ذلك أن هذا الباحث أوفد إلى إنكلترا للاشتغال مع باحث إنجليزي وعين له راتب وسيارة وشقة ... الخ وسمى مركبين هما : بكرين BAKRIN وصدامين SADAMIN ولم تصنع هذه المواد ولم تظهر في الأسواق وقد يكون لها بعض المفعول البسيط أو التأثير ضد الالتهابات المفصلية ، ومن النكات أن أحدهم جاء إلى صيدلية طالباً دواء "صدامين" فأجاب الصيدلي بعدم توفره ، فأردف الشخص قائلاً : أعطني "بكرين"، فأجاب الصيدلي بعدم توفره أيضاً . فقال : ماذا يتوفر لديك إذن . أجاب الصيدلي : "طه محي الدين" .

أحال الرئيس شيخاً وقوراً من النجف الأشرف مدعياً أن لديه علاجاً لمرض السكر ، احترمته لعمامته البيضاء وللجهة التي أرسلته وكان دواؤه طحين نوى التمر وجربناه فلم يظهر له أي مفعول سريري أو مختبري .

جائني شخص من الأنبار قائلاً أن مسحوق الحنظل أو نقيعه ينزل مستويات السكر وهذا ادعاء صادق وسبق معرفتي به ولكن أجهل أن كانت له أعراض جانبية .

وقد شاعت في تلك الفترة إن نبات " الجت " وهو غذاء عادة نستعمله للحمير وأن له فائدة للسكر وهذا صحيح كذلك من خلال احتوائه على مادة المانجانيز والتي قد يكون لها أعراض جانبية .

والنموذج الأشهر لطالب لم يكمل الكلية الطبية في البصرة وجاءني ببحث إحصائي عن سرطان الرئة في البصرة ، وشجعته على ذلك وأرشدته إلى الاتصال بالأستاذ سالم الدملوجي لمساعدته في رسم هيكلية البحث لأنني كنت على وشك الذهاب في إجازتي الصيفية ، وبعد أشهر بلغ إلى سمعي أن الرجل حصل على دعم مالي وأنشأ معهدًا أو مختبرًا باسم "معهد البكر للحوامض الأمينية" وبدأ يجمع الإتاوات من الناس بإدعاء إجراء فحوص لهم . وذكرت إحدى الصحف المحلية يومًا أن "الدكتور" المومأ إليه ألقى محاضرة في السويد أمام العلماء والأطباء والأساتذة السويديين لكن وزارة الصحة اكتشفت أمر هذا الدعي وحصلت على أمر بالقبض عليه ، وعندما شعر بالخطر أطلق ساقيه للريح وهرب إلى الأردن وبوسائله الاكروباتية دخل إلى الدوائر العليا هناك وحصل على زمالة إلى أمريكا ، ومن أغرب الغرائب – ليس بالنسبة لي فقط بل لكل الأوساط العلمية والطبية – ما فعله هذا الرجل هناك حيث قام بأكبر قرصنة علمية لم تشهد أمريكا لها مثالاً في الحجم والشكل والنوعية والاستمرار لمدة طويلة ، فقد نشر بحوثًا باسمه وأسماء مشاركة في مجلات من الصف الأول ومرموقة جدًا قبل أن يكتشفوا أنها في الأصل بحوث تخص علماء أفذاذ آخرين نقلت كما هي وبتغيير بسيط إلى مجلة أخرى ونسبت إلى معهد آخر مرموق . تكررت هذه الحال إلى أن حدث الشك عند أحد الناشرين وبدأ بالتقصي والسؤال عن هذا الباحث من خلال المعهد المذكور في البحث ولم يفلح أحد في إيجاده ، أرشد أحد الطلاب

في شيكاغو العالم المتقصي عن الموضوع وهو رئيس احدى الـدوريات المهمة بأن فرحان باقر هو الوحيد الذي يمكنه مساعدتك ، كلمنـي هـذا بدوره تلفونيًا وقد اعتذرت للخوف من الذراع الهدام للحزب الحاكم والذي يرسل إلى أي مكان ، ولم يصلوا ببحوثهم بوجود "الناشر اللغز" فـي أي من مؤسساتهم وقد ظهر هذا الشخص أخيرًا في جنوب أفريقيا متزوجـًا من يهودية ثم قتل بعد ذلك في حادث سير .

تبع ذلك آخرون في زمن ما بعد البكر وحصلوا على الـدعم والتشـجيع المالي والإعلامي ولم يكن في أبحاثهم ما يكفي من نواة لتـدور حولـه البحوث والاكتشافات على قدر علمي ومعرفتي قبـل أن أغـادر بلـدي الحبيب ، وربما حدث خلاف ذلك بعد مغادرتي . وإني لمتأكد أن بحوثـًا حقيقية وجيدة حدثت في حقول أخرى كالحقول العسـكرية والصـناعية والتقنية في عصر الحصار والمقاطعة وإعادة بناء ما أتلف وحطـم فـي الحروب والنزاعات العسـكرية لأن العـراق لا يفتقـر إلـى عبـاقرة ومخترعين حقيقيين وأظهر الكثير من الكفاءات العاليـة الـذين شـغلوا مناصب مهمة في مختلف الاختصاصات في العالم وخصوصًا في إنجلترا وأميركا وهم بمثابة أوسمة شرف للعراق والعراقيين .

البكر في زيارة الحمزة (رض)

كان الرئيس يؤمن بأحد الأولياء وهو الحمزة رضي الله عنه وكان يزوره في مقبرته قرب الحلة بين فترة وأخرى وأمر بتعمير مـزاره ولا أدري سر هذه العلاقة الروحية ولم أحاول معرفة جذورها، كما تجنبت الدخول في موضوع آخر وهو إيمانه الشديد بسيدة بصيرة كان يرجع إليها فـي بعض الأمور ويرعاها صحيا وماليا كما خصص لها دارا للسكنى. وكنت من شخصها بعيادتي الخاصة بإصابتها بتضيق فـي الصـمام الاكليلـي

ونصحتها بتداخل جراحي في لندن وقد أرسلت بالفعل (علــى حســاب الدولة وحسب علمي)؟ وقد أوصاني الرئيس بالتواصل معها والعناية بها . كان كما قلت كتومًا، يحتفظ بأسرار كثيرة ولا أريد أن أتطــرق إلــى الأمور السياسية والحزبية أو لمجالس قيادة الثورة بالمرة ولكننــي علــى علم ببعض الظروف العائلية بحكم تواجدي ومعالجة الكثيرين. كان تعلقه شديدا بالسيدة أم هيثم وحزن لمرضها ووفاتها وكذلك على شقيقته التــي كانت تشاركهما المسكن ، واذكر حزنه على وفاة صــهره الــذي يحبــه وزوج كبرى وأحب بناته إليه ثم وفاة نجله في حادث سير.

وحدث شيء غريب بعض الشيء لي شخصيــاً وهــو إحالــة الأســتاذ الدكتور عبد الحسين القطيفي وهو أستاذ جامعي فاضل كما أنه عميد كلية الحقوق إلى التقاعد في الوقت الذي كان هو المــدرس الخــاص لنجــل الرئيس البكر السيد هيثم البكر والذي كان يعطيه دروســاً خاصة في دار الرئيس ، وقيل حينها إن الأستاذ القطيفي لم يعط درجة النجــاح لمــدير مكتب السيد النائب، ولم يخف السيد البكر امتعاضه مــن هــذه الحادثــة وقال: "إن حرصي على وحدة الحزب وكيانه هــو الســبب فــي عــدم تحركي". ودمعت عيناه. وكان لا يزال رئيسا لمجلس قيادة الثورة ويتمتع بمناصبه الأخرى وقد كرر هذه المقولة مرة أخرى في مناسبة لا اذكرها في الوقت الراهن.

إن قناعتي بأن الرئيس البكر كان مخلصاً لبلده وبالطريقة التــي أمليــت عليه، ولا يساورني أدنى شك في تطويره وتحسينه للطــب . ولا يمكــن لأي مراقب أمين إلا أن يحكم بأنه كان السبب لكثير من المآســي التــي مرت بالعراق، فقد كان بــأعلى درجــة عســكرية بــين الانقلابيــين ،

وللمؤرخين ولمتتبعي حالته الذاتية الدخول في تفاصيل تاريخه العسكري الناصع لدى أكثرية الشعب العراقي .

والتركيز على تسييس الجيش وبعثيته وجعله بعثياً بكامله كهدف كان خطأً واضحاً بحق جيش تجاوز نصف المليون من المنتسبين ، من كل الفئات العرقية والطائفية والتي لا تتمكن من التحلل من ارتباطاتها .

وليس هناك أي تفسير كيف برّر لنفسه أو فئة تعيين نائب ضابط كمسؤول للجناح العسكري ، بحيث يتوجب على ذوي الرتب العالية أداء التحية العسكرية له ، بالإضافة إلى منح أعلى الرتب والألوان والأنواط لأفراد حتى وإن كانوا لم يؤدوا خدمة الجندية . والتبرير بأنها مناصب سياسية ليست بالمقبولة ، وإذا ما تطلعت إلى خلفية بعضهم فلا تجد فيها من سند أو مؤهلات .

كيف سيدافع هذا الجيش العظيم الذي لا يمكن لأي منطق أن يصدق أنه بلغ درجة الانصهار في بوتقة الحزب الحاكم مهما اشتدت حرارتها.

وأعتقد أن السلبية الكبيرة للرئيس البكر هي إيمانه المطلق واعتماده الكامل على نائبه ، ومن قدم له من "مظاهر" الإخلاص والتفرغ لمصالح الحزب ، وقد أعطاه الانفراد بالصلاحيات الكاملة ومقولته "لأبني لكم بناءً رصيناً لا تهزه الهزات والانقلابات". ولم يحصل كل ذلك ، وقد واكب ذلك الأب القائد هفوات كبيرة وثغرات والتي كان بالإمكان تلافيها ولم تزل كثير من الخيوط في يديه ، وسمعته يكرر أكثر من كل مرة "حرصه على وحدة الحزب".

لم يعارض السيد الرئيس أن أؤدي خدمات طبية لفئات على اختلاف معهم مثل السيد طاهر يحيى أو آخرين ، واستدعاني ذات يوم وعرض علي فكرة تقدم بها وزير الصحة ورئيس جامعة بغداد وهي ترشيحي

كعميد للدراسات العليا في جامعة بغداد ، ولم استغرق وقتــاً طويلاً فــي التفكير لكي أبدي عدم قبولي بهذا المنصب وربما كنت مخطئـــاً فــي رفض منصب مرموق جداً كهذا ، وعللت الأمر بأن أي منصب سيبعدني عنه ويتداخل مع خدماتي الطبية له وللمقربين منه ويبدو أن هذا التفســير أعجبه ووقع لديه موقعــاً حسنــاً. مضت أيام وشهور وسنين وأنا أواكب الأمور الطبية له ، ونتيجة لارتباطي العميق والواسع بهذه المســؤوليات والالتزامات فقدت الكثير مما يهيئــه لــي لقــب الأســتاذية كحضــور المؤتمرات وصفات علمية وأشياء أخرى .

أرسل عميد كلية الطب بتاريخ 1976/3/27م قائمة بأسماء تسعة أطباء إلى رئاسة جامعة بغداد وكنت الثاني في تلك القائمة بعد اســم العميــد ؛ لترسل إلى "دائرة المعارف العربية" كأبرز كوادر كلية الطب .

وقد حضر إلى بغداد وفد من كلية الطب في الجامعة الأردنية يطــالبون بـــ (تعريق) كلية الطب الأردنية لتأثرهم بمسيرة العراق الطبية حيث أنهم درسوا في العراق وبعد تخرجهم التحقوا بكلية الطب في الأردن وكــانوا نواة لها وكان أحدهم الدكتور قنديل شاكر أحد تلامذتي وعمل بعد تخرجه كطبيب مقيم في الوحدة التي كنت أديرها ، جاء إلى بغداد مع زميل لـــه من شعبة الجراحة ليطلبوا من المسؤولين العراقيين إعارتنا إلــى كليــة الطب في الأردن أنا والأستاذ عبد اللطيــف البــدري . قلــت لهــم إن موضوعي يكاد يكون مستحيلاً لارتباطي ومسؤولياتي لكن لا بأس مــن المحاولة ودعوتهم إلى بيتي حيث كــان مــن المقــرر أن يزورنــي – بالصدفة – الدكتور إبراهيم العبد الله رئيس جامعة بغداد آنذاك وســتكون حينئذ مناسبة جيدة ومواتية لطرح الموضوع وشرح طلبهم لـــه ، وقــد شرفوني بحضورهم وكان جوابه مطابقــاً لما أوضحته لهم سابقــاً .

كرمتني كلية الطب في الأردن باختياري عميدًا للممتحنـين الخـارجيين لأول دورة للمتخرجين في حزيران سنة 1979م ، وطلب مني إلقاء كلمة الممتحنين في حفل العشاء الذي أقيم بهذه المناسبة والتي لم تخـلُ مـن احتجاج بعض الأخوة اللبنانيين على تسميتي بعميد الممتحنين الخارجيين وقد أجاب المضيفون مشكورين بأن كل من ترونه هنا في هذا الحفل هم من خريجي كلية الطب في بغداد وانهم تلامذته .

عالم زائر

كان من حق الأستاذ التمتع بسنة تفرغ علمي والسفر إلى جامعة مقبولـة للاطلاع على ما استجد من تطورات في العلـوم الطبيـة بعـد اتخـاذ الإجراءات وموافقة كلية الطب وجامعة بغداد ورئاسة الجمهورية ، أمـا بالنسبة لي فكان الطلب مختصرًا ومبتورًا من سنة إلـى ثلاثـة اشـهر لظروفي السابقة وهي لارتباطي بعدد كبير من المسؤولين وعلى رأسـهم الرئيس ونوابه وكثير غيرهم ولرغبتي الشديدة والدائمة بوجوب تجديـد المعلومات الطبية ، ليس لي فقط بل لجميع المشتغلين في الحقل الطبـي الذي يمتاز بتطوره وتغيراته المستمره ، في سنة 1974 ثم أعيدت الكرة سنة 1978 خوفـًا وتجنبـًا للصدأ الذي قد يلحقني بسبب عـدم تجديـد معرفتي وتطويرها في العلم الذي عشقته . أجريت عدة اتصـالات مـع جامعة كاليفورنيا في سان فرانسيسكو وحصل القبول من معهد في غايـة الشهرة يديره عالم من الأفذاذ لكي أكون أستاذًا زائرًا من العراق . وعلى ذكر العلماء الزائرين كان هذا المركز يضم عددًا مـن الزائـرين مـن مختلف الدول ، وكانت توضع أعلام دولهم في مدخل المعهـد . قـدمت الطلب للكلية وأرسل إلى الجامعة التي أيدته وبعد انتظار طويـل جـاء الجواب مقتضبـًا يحمل " **لم تحصل الموافقة**". أثار هذا الأمر استغرابي

واستغراب كل من عرف به لشخص مثلي قدم ويقدم الخدمات ليل نهار لكل الرموز المهمة ، ويبدو أن هذه الموافقة لم تحصل كما قلت من الجهات الأمنية ولا بد لي من التنويه هنا إلى أن صلتي ومراجعتي الطبية تقلصت مع النائب ابتداء من سنة 1978 لأسباب أجهلها ، وكذلك حصل مع زياراتي لمستشفى ابن سينا (مستشفى المسؤولين) . ولا أنكر أن هذا الرفض سبب لي أرقاً وقلقاً وارتباكاً ولم أجد بدًا من الاتصال بالهاتف على الرقم الذي كان السيد النائب يرد من خلاله على طلبات المواطنين ، وبعد السلام قلت له : أنا المواطن فرحان باقر اطلب مقابلتكم لدقائق لأمر يهمني ، وبعد أن شرحت له الأمور اتصل بي السيد برزان التكريتي والذي تربطني به صلات ليست بالخفيفة ودعاني لمقابلته حيث كان مرحاً ولطيفاً معي ، وبعد شرب الشاي أخبرني أن ليس هناك ما يمنع سفري سوى صلاتي القويّة بعدد كبير من المسؤولين وأنت تعرف الكثير The man who knows too much مما قد يدفع بعض الجهات الأجنبية إلى أن تطمع في الحصول على معلومات مني عن الحكم في العراق . أجبته بأنني كنت آمل بعد هذه السنين الطويلة أن تكون معرفتكم بي وصفاتي وتصرفاتي المهنية أعمق من ذلك ، أنا أكبر من أن أكون ممن يتاجرون بالمعلومات والأسرار وأحترم كل علاقة مهنية مع أي شخص ممن رأيتهم بصرف النظر عن منصبهم ، والسر المهني مقدس لدي . بعدها رفع هذا الحظر وسافرت إلى المعهد الجامعي كعالم زائر ورجعت بعدها ممارساً لمهماتي .

الفصل الرابع

التنازل والتتويج

فوجئنا وفوجئ العراقيون في 1979/7/16 بإعلان تنازل السيد البكر عن كل مسؤولياته ومناصبه وظهر هذا عبر شاشات التلفزيون ، وأُعزيَ إلى حالته الصحية التي قد تكون سبباً ظاهرياً مناسباً . إلا أنني لا أستطيع التهرب أو إنكار أن هناك عوامل أخرى ، اتخذت حالته الصحية كغطاء لهذا القرار ، ومن هذه العوامل عدم قناعته ورفضه للحرب العراقية الإيرانية الآتية والتي أمكن أن أستشفها من خلال محادثاتي العفوية معه . وقد علمت بعدئذ أن طلبه الوحيد ممن جاءوا لزيارته "طالبين" منه التنازل أن يحتفظ بأطبائه ولجنته الطبية ، وقد يكون البعض منا قد تعرض لصعوبة الوصول إليه.

لم أكن متواجداً عند عرض التنازل التلفزيوني ، لكنني هاتفته بعد أيام من هذا التنازل مبادرًا إياه بالتحية والسلام قائلاً له إنني ما أزال انظر له كرئيس، وربما كان هذا سوء تقدير أو قصر نظر من طرفي لاني لم أفكر أن الجدران يمكن أن تسمع وترى لكن الحديث جرى بعفوية تامة يبدو أنها لم تكن مقبولة .

طلبنا ذات يوم من السيد البكر أن تفحصه لجنة طبية بحضور رئيسها وزير الصحة الدكتور رياض ابراهيم ، كما طلبت منه إجراء فحص شعاعي وأن يكون بمعيته أحد الأطباء لكي يشرح الطلب للمصور الشعاعي ، وسألني السيد البكر مندهشًا : لم لا تكون أنت المرافق؟ تبسمت وتبسم الآخرون ولما سأل عن سر ابتساماتنا أخبره الآخرون بأن كل أعضاء اللجنة أحيلوا إلى التقاعد بالإضافة إلى أطباء آخرين وكان رئيس الجمهورية والمريض نفسه آخر من يعلم !!. وقع عليه النبأ وقوع

الصاعقة وتلقاه بحزن وأسى واستغراب وبدأ يضرب الكفَّ بالآخر وقال : إن هذا تخريب ، والله تخريب .

اعتداء صارخ ولياقة المسؤول الكبير!!

في ليلة من ليالي تموز 1980 دعا السيد البكر لاجتماع اللجنة الطبية في بيته وانعقد الاجتماع بحضور عدد من الأطباء ، وكان بينهم – يا للغرابة– الحاج خير الله طلفاح وبعدما نوقشت الأمور الطبية التفت إليَّ الحاج ليقول وهو يشير إلى الزملاء منوّهاً لألقابهم وأسماء عوائلهم : إن فلاناً يُدعى بكذا وفلاناً بكذا فبماذا تُدعى أنت؟ . لأول وهلة أدركت ما يعني من ذلك السؤال المُريب ؛ وكان الاجتماع الغريب قد رتب وخطط له لهذا الغرض . فقد كان والدي من رجال الكاظمية وبغداد المعروفين وكان يدعى بالحاج باقر النعلبند وقيل لنا إن هذا اللقب جاء من اشتغال آبائه بتجارة الجلود ولم يذكر لنا أحد بأن الأجداد مارسوا عملية تنعيل الخيول ، وحتى لو حدث هذا فإنه ليزيدني وأخوتي فخرًا وزهواً من أن يتمكن والدي المرحوم الذي اشتهر بتقواه واستقامته وتدينه وإيمانه وثرائه أن يخرج ثلاثة محامين حقوقيين شغلوا مناصب متقدمة في البلد : اثنان بدرجة قائمقام ووكيل لمديرية الجمارك العامة ، وصيدلي وطبيبين أحدهما كاتب هذه الأوراق " حكيم الحُكام " ، وانه فعل ذلك بجهده ومن عرق الجبين لا بالتحايل أو الرشوة أو الاستيلاء على ممتلكات وحقوق الغير! ألا يكون هذا سبب فخر واعتزاز لأولاده . وعلى كل حال لم أستعمل أنا وأخوتي غير أسمائنا واسم الأب والجد ولفترة قصيرة استعملت أنا لقب "الخفاجي" واستعمله على الدوام بعض أبناء عمومتنا وأقاربنا الآخرين وهو أصلنا الذي لا غبار عليه وموثق في شجرة العائلة . لقد كنت على الدوام محتفظاً بما أعتقده من قيمة هذا الانتماء وأنا من

المؤمنين بأن قيمة الإنسان تكمن في استقامته وأمانته وأدائه لخدمات لبني جنسه وبلده وعدم ابتزاز الآخرين واستغلال سلطته بما حصل عليه من صلاحيات وسطوة .

ولا أريد من تقديم السيد طلفاح لفروعه وأصوله وممارساته كباب للهروب من تخاذل جسيم وجبن مجسم ولم يكن حب الحياة أو سلامتي هو العامل الذي دفعني لهذا التصرف والكل يعلم بما كان يجري في الشارع العراقي وما يحدث لمواطن أو مواطنة عندما لا يتمتع بالصيانة الجمهورية أو القناع الواقي السحري أو عدم الرضا من جهة مهمة . ولم أتتبع نتائج تلك المسألة رغم فضولي الشديد لمعرفة ما خفي ومضيت في خطتي بالسفر إلى الخارج.

أعود إلى الاجتماع الذي لم أنبس فيه ببنت شفة ، وأحسست أن الدماء تتدفق إلى رأسي ووجهي ولا أعرف ما كان لوني هل هو شاحب أم محتقن واعتقد أن الاحتمال الأخير هو ما حدث وكان مصحوباً بالتعرق ، وماذا عساني أرد على خال رئيس الجمهورية ووالد عقيلته ووالد عقيلة مدير المخابرات ووالد وزير الدفاع وابن عم الرئيس القائد الذي نفحصه الآن . ولا أريد أن أتطرق إلى عبقرية الرئيس البكر الذي سمح بوجود هذا الرجل في اجتماع علمي طبي كهذا ! .

حجب السفر واختفاء الجواز

في شهر مارس 1981 هاتفني السيد البكر قائلاً انه ينوي السفر إلى جنيف للاستجمام والاستشفاء منتهزًا وجود صهره السيد منذر المطلك كسفير هناك، وأبدى رغبته في أن أرافقه وأعلمته بان لدي مشروع للسفر إلى تشيكوسلوفاكيا مع العائلة للعلاج في إحدى مصحاتها المعروفة بالعلاج الطبيعي وأنني رتبت أموري لذلك ويسرني أن التحق به من

هناك . اتفقنا على ذلك وأرسل رسالة إلى بهذا المعنى يستهلها : بــ أخي الدكتور فرحان وما إلى ذلك (الرسالة موجودة لديَّ في إحدى المدن التي تنقلت فيها) ويطلب في الرسالة أن أرسل جواز سفري للحصــول علــى فيزا سويسرية لي وعائلتي وحجز شقة لي وان هذه المعاملات قــد تــم إنجازها . علمت بعد أيام بأن القيادة طلبت منــه صــرف النظــر عــن ترتيباته وانهم هيأوا له طائرة خاصة وأطباء لمرافقته واعتقد أن الاختيار وقع على الدكتور المرحوم الحيالي و الدكتور صادق علوش للمرافقة .

وأترك للقارئ النبيه تفسير وتفهم هذا التصرف والذي يحدث للمرة الثانية . مريض له ثقة وثيقة بطبيب أصاب أو أخطأ يختار طبيبه والذي تعرف على تاريخه الطبي وبنائه الجسماني والأدوية التــي يتعاطاهــا وتعامــل جسمه معها بالتفصيل لينحى حتى ولو انه عضو أو رئيس في اللجنــة . لقد عرف المهندس بهواجس وأفكار عن وزراء وقادة عسكريين وحزبيين بل وأفراد آخرين أن عليهم غشاوة " أو هكذا يترائى له والتي تكون فــي أحلامه بعضــاً" وتكون النتيجة وخيمة عليهم وعلى أطراف أخرى وعلى البلد وقد قرأت في تلك الفترة كتاب جاء فيه بأن الرئيس البكر يتآمر مع الرئيس حافظ الأسد ويجوز أن ربط هذا المهندس السفرة في ذلك الحــين وبصحبة مرافقته طبياً هو جزء من المؤامرة المزعومة !! ؟ .

لم يؤثر ذلك على خططي السابقة بل أتاح لي حرية التصرف والانطلاق. توجهت إلى المطار حسب الحجز المسبق لي ولعائلتي وهنا فوجئت بمــا لا يخطر على بال أي شخص متزن وعاقل وقيل لي بطريقة مؤدبة بــأن سفري ممنوع واحتفظوا بجوازي مؤكدين أن بإمكان عائلتي أن تواصــل أن أرادت وبالطبع رفضت ذلك كما يرفضه أي رب عائلة متزن . سألت بهدوء عن مصير جوازي فأخبروني أن عليَّ مراجعــة الأمــن العــام

ورجعنا جميعـًا بخيبة أمل وقلق عميق ، وأن آخر من يتصور أو يتصوره المراقب اللبيب أن يواجه هذا التصرف خاصةً وأن وجهتي وعائلتي هي الى تشيكوسلوفاكيا بينما وجهة الرئيس كانت الى جنيف في سويسرا وصرت اضرب أخماسـًا بأسداس وأجري عمليات حساب أخرى باحثـًا في سيرتي المهنية أو توجهي الوطني عما يبرر هذا السلوك ولم أجد في نقاء سيرتي أو توجهي الوطني نقطة واحدة في صفحتي البيضاء تبرر مثل هذا الإجراء أو أي من تلك الأسباب التي يمكن أن تكون في مخيلة وعين مسؤول كبير. لم يكن الجواز في دوائر الأمن العام وعندما تدخل أحدهم ممن له أهمية وتأثير وقرابة لدى المقام السامي مادحـًا مسيرتي وكفاءتي وإخلاصي أجاب هذا المقام بأننا نعرف عنه هذا ولو كان هناك أدنى شك لكان فرحان في سجن رقم (1) . وقد أخبرت انه في درج منضدة السيد الرئيس صدام!!! . ومن يدري .. ربما اعتقد هذا المقام باحتمال قيامي بانقلاب مع السيد الرئيس البكر من سويسرا والله أعلم ما كان سر النقطة السوداء أو الملونة في عين ذلك المسؤول .

استمرت محاولاتي واتصالاتي وأخيرًا اخبرني سكرتير رئيس مجلس قيادة الثورة المرحوم السيد طارق حمد العبد الله أن الأمر بسيط وغير ذي أهمية وأرسل لي الجواز مشكورًا بدون أي تعليق أو أي إشارة إلى منع أو غير ذلك. وكانت عائلتي قد سبقتني إلى الخارج في فترة المعاناة واحتجاز الجواز، فتهيأت للسفر في العشرين من شهر آب على وجه التقريب وذهبت إلى المطار بحقيبة واحدة فيها القليل من احتياجاتي وصور شعاعية . كان قد حضر إلى المطار موظفون رفيعوا المستوى من الأمن العام ليقولا لي أو يبلغاني شفهيـًا أن السيد مدير الأمن العام

يبلغك تحياته ويأمل أن ترجع معافى في القريب العاجل ، وأمـــروا لـــي بعصير وأمروا الرجال المسؤولين في المطـــار بعـــدم تفتـــيش حقيبتـــي وشكرتهم على ذلك ومضيت في طريقي .

توقفت ليلة واحدة في عمان وكانت قد وصلتني رسالة خاصة من الجامعة الأردنية قبل سفري بأيام تقول إن رئيس الجامعة يرغب بلقائي ومقابلتي إذا سنحت الفرصة حيث طرح اسمي كعميد لكلية الطب في عمان ، وتم اللقاء في صبيحة اليوم التالي لوصولي . كان اجتماعـــاً روتينيـــاً ولـــم أعرف نتيجته وأكملت السفر إلى لندن ثم أميركا بعدئذ . وعلمت بعد أيام أن الدكتور عبد اللطيف البدري كان بالفعل على كرســـي العمـــادة ولـــم يصبني ذلك بأي خيبة أمل أو أي اثر نفسي حيث أن الأردن بالذات لـــم تكن بالبلد المريح بالنسبة لي وفيها مـــا فيهـــا مـــن عناصـــر التنصـــت والمخابرات وحساب الأنفاس ، إلا أن فضولي لم يتوقف وبحثـــت عـــن سبب عدم اختياري للعمادة وأُخبرت بـــروايتين ، الأولـــى أن الأســـتاذ الدكتور عبد العزيز الدوري تدخل لدى القصر لصالح صديقه الـــدكتور البدري والثانية أن المخابرات العراقية كانت ضد ترشيحي ولا بد أن علم ذلك عند الراسخين في العلم فقط .

واصلت السفر إلى لندن ثم شيكاغو بعد ذلك حيث كان لي أقارب وتلاميذ وسجلت ولدي أحمد في إحدى الجامعات وعينت أنا كأستاذ شرف فخري في كلية طب أبراهام لينكولن اللامعه لأشرف على التـــدريس وأنـــاقش بعض طلبة الدكتوراه لما بعد التخرج . كان ذلك مجانيًا بصـــفتي أســـتاذ شرف . لم تسجل شيكاغو انخفاضًا في درجـــات الحـــرارة مثـــل ذلـــك الانخفاض كتلك السنة منذ اختراع الترمومتر، والتنقل من والى الجامعـــة بواسطة النقل العام وقد سجلت في تلك السنة تلف وتجمد صـــيوان الأذن

لعدد من الاشخاص وموتهم من شدة البرد ، هذا إضافة إلـــى صـــعوبة التسجيل والممارسة في هذه الولاية مما دفعني للذهاب إلـــى كاليفورنيـــا حيث اجتزت امتحان ممارسة المهنة بسهولة نظرًا لدراســـاتي الســـابقة لثلاث سنوات في الخمسينات في أميركا. وبعد ما يقارب الأشهر الســـتة على مغادرتي العراق هاتفني السيد هيثم البكر من لندن ناقلاً رسالة مـــن والده يقدم تحياته ويتمنى لي الصحة والشفاء وبأنني أطلت الغيبة ويأمـــل في عودتي . أجبته بالشكر وما يناسب الموقف ولم أسمع منهم شيئـــًا بعد ذلك حتى سمعت خبر انتقاله إلى الدار الآخرة عام 1982 .

وفاة الرئيس البكر

وهنا تقاطرت عليّ الأسئلة عن كيفية وأسباب وفاة الرئيس البكر ، وكانت إجابتي البديهية هي كيف لي أن أعرف ذلك ولم أكن في معيتـــه أو فـــي البلاد ؟! على كل حال الأبواب مفتوحة على كل احتمال وتعكس مثل هذه التساؤلات شكوك الكثيرين حول وفاة الرئيس البكر .

وعند رجوعي الى منطقة الشرق الأوسط منتقلاً بين بغـــداد والإمـــارات تهيأت لي الفرصة لأدخل في تفاصيل وفاة المرحوم البكر . اني على علم ودراية بما يحيط به من أمراض وأحدها داء السكري والذي لم يكن بتلك الشدة وكان يعالج بحبوب عن طريق الفم لسنين والتـــي حافظـــت علـــى مستويات جيدة من السكر ، اضيف الى علاجه حقـــن الأنســـولين بعـــد اغترابي وكان المرحوم يفتقدني في هذه الفترة كما ذكرت ما حـــذا بـــه بالطلب من نجله هيثم بمكالمتي من لندن الى سان فرانسيسكو بأني أطلت الغيبة واعتذرت بمرضي أنا .

لقد حصل تغير في هيئته الطبية وكان يعوده في الأيام الأخيـــرة طبيـــب عراقي من خريجي المانيا . وقد حلم المرحوم بما يحلمه النـــائم بقـــرب

أجله ، وفي صباح اليوم التالي عاده الطبيب وأعطاه حقنة الدواء كالمعتاد أحس بعدها بفترة قليلة بدوار "دوخه" وكان الطبيب الذي لم يزل متواجداً وكان في العادة يزور الرئيس نسيبه الحاج طه رجل عسكري معروف بالاستقامة والتدين وطلب منهم البكر أن يتخير الله بالقرآن وجائت الآية " أتى أمر الله فلا تستعجلوه" أخفاها الحاج طه عنه مما جلب استغرابه وأخبره الأخير أنه سيعيد الاستخارة ، اشتد الدوار ولم يتمالك نفسه في المغسلة ليرجع على فراشه واستدعوا بقية اللجنة والرئيس صدام وأحضروا سيارة اسعاف إلا أنه رفض نقله الى المستشفى وفاضت روحه الى بارئها في الرابع من أيلول سنة 1982 عن ثماني وستين سنة .

وهنا أتوقف لأعطي الحق لكل من وضع علامة استفهام وقد علمت أن هذا الطبيب لم يعد متواجدًا في المحافل الطبية .

انقطعت الصلة والتواصل إلى أن سمعت المؤتمر الصحافي للفريق (حسين كامل) في عمان سنة 1996 حيث سئل وقتها : هل صحيح أن الحكم في العراق قد أعدم وزراء أو مسؤولين ؟ فأجاب : نعم وضرب مثالاً على ذلك بإنهاء حياة الرئيس البكر ، ولم يكن في اللقاء تفصيلات عن كيفية حدوث ذلك، وان صح ما قاله فانه يفسر إعدام المرحوم الدكتور رياض إبراهيم الذي ذكرت الإشاعة في حينه انه – أي رياض إبراهيم – اقترح على صدام أن يتخلى ولو مؤقتاً عن الحكم ويعطي الرئاسة للسيد البكر عندما بدأت انكسارات الجيش العراقي في إيران ورفض الطرف الإيراني أن يوقف القتال وذلك لتفادي حوادث قادمة .

وهناك أمر آخر يؤكد رواية إنهاء حياة الرئيس البكر هو اختفاء أحد الأطباء الذين زاروه في آخر يوم من حياته ، وقد اختفى هذا الطبيب كما أخبرني أحد الذين واكبوا هذا الحدث .

الفصل الخامس

السيد صدام حسين

بدأت معرفتي بصدام حسين في وقت مبكر بعد انقلاب الحكم ، ومجيء البعث إلى السلطة عام 1968م، فقد رأيته يجلس في ركن من قاعة الطعام – التي كنت أصاحب الرئيس البكر بالذهاب إليها – حيث كنت أجلس عن يسار الرئيس كنوع من التكريم الخاص بي ، وكان يجلس عن يمينه نواب الرئيس ، وفي الركن البعيد كان يجلس ذلك الشاب الرشيق الأسمر الوسيم بزيه العسكري برتبة ملازم ، ولكنه منح بعدئذ رتبة فريق ركن .

تطورت العلاقة والتقارب إلى أن أصبحت طبيبه الخاص لسنوات ، وكان قد سألني في وقت مبكر بعد استلامهم للحكم عن مدرسة جيدة ليلتحق بها نجله عدي ، وأعلمته أن أفضل مدرسة هي مدرسة المنصور النموذجية التي كان يدرس فيها أطفالي ، فطلب مني يومها أن أسجل نجله عدي فيها فلبيت له طلبه ، ولم تكن المسؤولة عن التسجيل سعيدة بهذه العملية .

لقد زارني السيد النائب "صدام" مرتين في عيادتي الخاصة ، ولم تكن خدماتي الطبية له ولعائلته تقل عما أقدمه للرئيس البكر نوعية – ولو أنها تقل عنها عددياً – ولكنها تتصف بوجوب الاستجابة للطلبات مباشرة ، وقد تجتمع في بعض الأحيان اللجنة الطبية لموضوع خاص ؛ وقد جرنا النقاش إلى دردشة ما بعد الفحص مع السيد النائب في احداها حيث اقترح المرحوم الدكتور علي كمال – بصورة مازحة وليست بدون مغزى – إن من المفيد أن يضاف طبيب نفساني إلى مجلس الوزراء ، ونال هذا التعليق استحساناً ظاهرياً وابتسامةً من السيد النائب .

وذات مرة مكثت ليلة كاملة في منزل صدام لأمور طبية طارئة ، ولسبب موجب لذلك ، وفي ليلة أخرى أرسلت له ما يلائم حالته الصحية طعاماً حضر في بيتي ، وكانت ثقته بي عالية فسألني ذات مرة عن مدى الجودة والصحة لطعام كان يتناوله في مطعم يتردد عليه "مطعم فاروق" .
وكان يراجع عدداً كبيراً من الأطباء من ذوي الاختصاصات – بمعرفة واستشارة مني– وفي إحدى المرات استدعينا استشارياً من الخارج وكنت برفقته واتفقنا على كامل التشخيص وخط العلاج .
وفي سفرات السيد النائب "صدام" اصطحب أطباء آخرين غيري ، وقد يكون ذلك بسبب إخبار له من أحد الزملاء بأني قد قلت : "سوف لا أسافر مرافقاً إلا مع السيد الرئيس" . ولم تقتصر خدماتي الطبية عليه فقط بل شملت العديد من أفراد أسرته ومقربيه ؛ كزوجته السيدة ساجدة خير الله حيث عالجتها مع زميل لي وكان تشخيصي وعلاجي لحالتها لا غبار عليه، ورغم ذلك فإن الإدارة استدعت طبيباً استشارياً يهودياً من أميركا وكان تشخيصه والعلاج الذي كتبه لها متطابقا مع تشخيصي . وقد يكون استدعاء هذا الطبيب وعدم الاعتماد على تشخيصي قد حدث باقتراح من قبل بعض الزملاء المنافقين والمتصيدين في المياه العكرة .
وقد عالجت بعض أشقائه وأولهم السيد "دهام" في مستشفى الأمراض الصدرية . وكذلك جميع شقيقاته حيث كُنَّ في غاية الاحترام المتبادل مع الطبيب .
كنت ملتزماً مهنياً مع الجميع ، وكنت أستجيب لجميع طلباتهم في العلاج سواء كنت وحدي أو مع زملاء آخرين . وكانت احدى مشاهداتي الغريبة أثناء تلك الفترة مجيء أحد مرافقي صدام أثناء إلقائي لمحاضرة في كلية الطب، حيث طلب مني الذهاب معه لفحص خالة السيد صدام لم تكن

حالتها تستدعي السرعة أو كانت طارئة ، وهي بحسب علمي مريضة مزمنة ومراجعة مستمرة لعدد غير قليل من الزملاء فاعتذرت لذلك المرافق بأني في حالة إلقاء محاضرة ولا أستطيع المغادرة معه ، فقال : ولكنها قريبة "صدام" ، فأجبته : أن هذا لا يبرر قطع محاضرة ألقيها على مئات الطلاب وهي مسألة لها قدسية خاصة عندي وعندما أنتهي من المحاضرة فسأكون جاهزاً لفحصها وأعالجها بعد انتهائي من الدرس . وقد يكون هذا التصرف غير مقبول عند السيد النائب ومرافقيه ويجرّ عواقب مستقبلية . وفي مناسبة أخرى هاتفني السيد النائب لألم في رأسه وأنا أستقبل المعزّين في مجلس الفاتحة للمرحومة والدتي ، فوصفت له بالتلفون بعض الحبوب البسيطة . وقد لا تكون هذه الطريقة مقبولة لديه بدون الركض والأسراع لمقابلته وفحصه بالرغم من الظرف الخاص الذي كنت فيه .

وقد استدعيت أكثر من مرة لعلاج والدة السيد النائب والحاج خير الله طلفاح ـــــ خال صدام ووالد زوجته ساجدة ـــــ وزوجته طيلة تلك الفترة ، وبقيت مستمراً في علاجهم إلى أن هبطت أسهمي عندهم لسبب أجهله ؛ ولا أجد غير الوشاية من سبب .

سبب آخر أعتقد أن ما أصاب بعض من ارتفعت مناصبهم بشكل لوغاريثمي وولد شعور لديهم باستدعاء أطباء من الخارج ليرضي شعوره النفسي وأخيراً وليس اخراً فإن مغنية الحي لا تطرب .

وفي أحد الأيام استُدعيت على وجه السرعة لمعالجة إحدى شقيقات السيد النائب "صدام" لحادث طارئ ، وكان مرضها عبارة عن "إنصباب" في شغاف القلب واستوجب إدخالها إلى مستشفى اليرموك واستدعيت يومها أحد الأخصائيين وهو الدكتور العمري لسحب هذا السائل ، وكان السيد

النائب متواجداً معي في فناء المستشفى منتظرين نتيجة الإجراء الطبي الذي يقوم به الدكتور العمري للمريضة . وجاءني الزميل الجراح ليخبرني بنوعية وسبب المرض وكان هذا من الأسباب النادرة ، فنقلت بدوري هذه المعلومات إلى السيد النائب بشكل مبسط وأعلمته أن الموضوع ليس بالهيّن البسيط؛ فسألني بطريقته المعتادة: ما العمل ؟ . فأخبرته أن الحالة تحتاج لمداخلات جراحية يمكن إجراؤها في لندن على يد أحد كبار الجراحين هناك والذي أعرفه معرفة جيدة، وسألني من الذي أقترحه لمرافقة المريضة ، فأجبته : أرجح أن يسافر معها نفس الجراح الذي يعالجها الآن ـــــ أي الدكتور مؤيد العمري ـــــــــ وهو أفضل الخيارات لأنه سبق وأن اشتغل مع نفس الأستاذ الاستشاري الذي فكرت في ذهاب المريضة إليه . فقال : إن كنت مطمئناً فتوكلوا على الله . ورافق المريضة برزان التكريتي ــــ الأخ غير الشقيق لصدام ومدير المخابرات العراقية الأسبق ـــــ وقد انعكس سفر هذا الجراح ـــــــ الدكتور العمري ـــــ معهم بشكل إيجابي عليه ، وبعد مسيرة علاجية معقدة وعمليات جراحية عديدة لهذه المريضة انتقلت إلى رحمة الله بمرض الأكياس الهايدتيكية المنتشر .

لقد حكم السيد النائب – صدام– لسنين طويلة وبشكل فعال من وراء الكواليس ، وحكم بصورة مباشرة في أكثر القرارات أهمية وخطورة في تاريخ العراق أيام حكم الرئيس البكر ، وكانت صلاحياته واسعة باسم السيد الرئيس وتحت مظلته، وأخيراً بصورة الحكم المنفرد الذي يعرفه الجميع منذ إقصاء الرئيس البكر عن الرئاسة في سنة 1979م . ومن خلال هذه الصحبة المهنية الطويلة والقريبة ؛ أجد نفسي مؤهلاً لتناول

بعض من جوانب هذه الشخصية الأسطورية – صدام حسين- بالعمق الذي أجدني قد وصلت إليه .

علمت أن السيد النائب مولع بالقراءة وطالع الكثير من الكتب والأدبيات أثناء سجنه وأثناء وجوده في القاهرة ، إضافة إلى الأدبيات كان قد قرأ أيضاً كتاب "كفاحي" لهتلر وسيرة ستالين . وكان يكتب في جريدة الثورة افتتاحياتها في بعض الأحيان دون أن يضع اسمه على المقال ، وقد امتدحت هذه المقالات في مناسبتين أثناء دردشة بعد الفطور معه ، فسألني بابتسامة رضا : كيف عرفت أني كاتبها ؟ . وأجبته : لقد صاحبتكم لأكثر من أربعين يوماً . مما زاد في مرحه ورضاه ، وأثنى علي مرة بأن لي توجه وتفهم واستيعاب جيد في السياسة ، وعلمت في السنوات الأخيرة أنه كتب روايتين أو ثلاثاً .

كان السيد النائب وسيماً ، ونمت الأناقة عنده بشكل ملحوظ مع الوقت ، ونمت وتطورت هذه وكان له خياط خاص بالاضافة الى ما يستورد له من اشهر معارض الازياء في العالم . وكان يتمتع بذاكرة ممتازة ، وكان كبير الثقة بنفسه ، ولا تخفى هذه الصفة عن أي شخص يتعامل معه عن قرب أو كانت له صلة جيدة به . هادئ بوجه عام ، ولا تظهر انفعالات على تقاطيع وجهه ، وكان يملك الكثير من رباطة الجأش ، يستمع لمحدثيه باهتمام وانتباه واضحين ، كتوم بشدة ومحاط بجدران من السرية التي لا تخترق ، يتمتع فوق ذلك بشخصية قوية ونفاذة – شخصية كارزمية – ولا يمكن أن يلاقيه أحد إلا ويترك فيه انطباعاً مؤثراً وقوياً ؛ وخوفاً ورهبةً عند الكثيرين . وكما ذكرت فقد كانت ثقته بنفسه لا تُضاهى . وتنامت هذه الصفات بشكل ملحوظ على مر السنين بما رافقها من أحداث زادت في حدتها ابتداء من 30 تموز 1968م ، حين أقصى

البعثيون رجالاً كباراً وذوي رتب عالية في الجيش وممن شاركوا فعلياً في تخطيط وتنفيذ انقلاب 17 تموز بنفس السنة وكان هؤلاء وراء نجاح الانقلاب ، مثل : الداود والنايف .

وبالرغم من كل هذا فقد كان مهذباً وضمن حدود الأدب والمجالسة ولم أسمع منه ما يسيئ أو أشعر بأي خشونة في حديثه طيلة المدة التي رافقته فيها .

لقد استغل صدام منصبه وتأثيره المتزايد وصلة قرابته بالبكر والظروف الصعبة التي تحيط به من مرض وأحداث عائلية ، وسماعه لمصادر كثيرة، والتأثير الكبير للحاج "طلفاح" عليه وإيحاءاته لصالح صهره (زوج ابنته وابن اخته ومن توكل بتربيته) . أقول لقد استعمل صدام كل صلاحيات البكر بأسوأ الأشكال ، والتي أدت دون أدنى شك إلى تهميش سلطة رئيس الجمهورية تدريجياً وإنهائه بالتنازل عن العرش ، وهو الذي أتي بصدام من العدم ليكون "الشخصية الأسطورية" بعد عقد واحد من الزمن فقط .

وتبع ذلك الحدث أحداث مهمة مثل اغتيال السيد حردان التكريتي أحد نواب رئيس الجمهورية ، وتقليص وتقييد صلاحيات النائب الثاني السيد صالح مهدي عماش ومن ثم وفاته في هلسنكي ؟ وتصفية رمز آخر من قيادات الحزب البارزين وزير الخارجية السابق الدكتور عبد الكريم الشيخلي سنة 1972م ، كل هذه الأحداث وغيرها أسهمت في ازدياد قوة السيد النائب وتوجت هذه الأمور بإجهاض حركة ناظم كزار – مدير الأمن العام في السبعينات – وبذلك سيطر صدام سيطرة تامة على المؤسسات الأمنية، وجرى اعتقال وتعذيب وسجن شخصيات عراقية كبيرة وأغلبهم ممن شغلوا مناصب مهمة كرؤساء وزارات ووزراء

ومدراء أمن وضباط كبار في الجيش، وتم تصفية أعـداد كبيـرة مـنهم وصاحب ذلك ممارسات بشعة بحق الناس، تلك الممارسات التي تعـدت رائحة بشاعتها جدران السجون الرهيبة.

أغلق قصر النهاية السيء الصـيت بعـد ظهـور وانتشـار الفضـائح والأنتهاكات التي مورست ضد المواطنين وبصورة خاصة الشخصـيات السياسية والعسكرية العليا التي كانت جزءا من الفئات القومية المشـاركة في الأنقلابات والحكم . وبالطبع ألقى صدام اللوم على أخيه غير الشقيق برزان التكريتي واستعمله كبش فداء .ومما نسمع من بعض الناجين مـن هذه السجون الرهيبة ما لا يصدقه أو يتحمله العقل البشـري ولا توجـد صفة في قاموس اللغة العربية تكفي لما كان يحدث لهـؤلا المبتلـين أو لعوائلهم وكثرة منهم أبرياء واعتقلوا ترهيبا للآخرين أو بسبب كيدي وقد يكون هذا واضحاً من توزيع شريط محاكمة الفئة التي اتهمت بـالمؤامرة ومن تعاون معهم الى طلبة في عمر المراهقة ولم يبلغوا سن النضج بعد.

التأميم

من الحق والإنصاف القول ؛ أن الإنجاز الكبير بتأميم نفط العراق والدور الرئيس الذي لعبه صدام في ذلك سنة 1972م رمى بكل ثقله وتأثيره لإبراز أبعاد وصلاحيات وصفات هذه الشخصية الفريدة ، ولا يمكن لذلك إلا أن يبقي آثاره وبصماته – أي صدام – على مراكز القوة في الحزب الحاكم. ابتدأ بتصدير نفط الجنوب بخمسة ملايين برميل سنويـاً بتمويل من الروس وقروض من الفرنسيين مما مكن السلطة بالحصول على بعض المال واستمرت بمفاوضات مع الشركات السابقة المتعنته وقد أدار الجانب العراقي المفاوضات بذكاء وأتم التأميم في الشمال والجنوب بمراحل أكملها بهدوء وسلام وكان هذا نصر بيناً لصدام وكانت مناسبة

لاحتفالات في البلاد . التأميم أصبح انجازاً من الوزن الثقيل لابراز شخية وصلاحيات هذا المسؤول. وكل هذه الأمور أدت إلى تنامي ثقة الرئيس البكر بنائبه وإعطائه مزيداً من الصلاحيات، يضاف إلى ذلك صلات القرابة والدم بينهما والزيجات المعقدة في عائلتيهما فزادت من سبك هذا النسيج القيادي. وقد أضعف مركز قوة البكر الأول– رئاسة الجمهورية – ظروف بيته وأمراضه المتعددة ووفاة صهره مظهر المطلك في حادث غامض ، ومرض زوجته القريبة منه جداً،



البكر وهو يلقي خطاب تأميم النفط

ومن ثم انتقالها إلى دار الآخرة ، ومرض شقيقته ووفاتها ، وأخيراً وفاة نجله المحبب إلى قلبه السيد محمد البكر ، كل عامل من هذه العوامل يكفي ليهد أي طود متين .

ولا أزال أذكر بدقة مدى شعور صدام بثقته العالية بنفسه حين أخبرني في إحدى فترات الدردشة أن "أعطني يا دكتور عشر سنوات لأغيّر تركيب البلد، وسأُرْضِعُ أطفاله حليب البعث". وقد عشت ذلك لأرى ما كان يقول ويعني .

كانت نظرته للمثقفين وتحديداً الأطباء والمهندسين نظرة متعالية ، وكان بينه وبين الأطباء حباً مفقوداً على عكس ما اتصف به الرئيس البكر ، وكان يتمتع بقوة ملاحظة شديدة وحدة ذكاء – رغم أن هناك من يخالفني الرأي في ذلك – ولي عودة لهذا الأمر فيما بعد ، ولا يمكن لأحد الطعن في جرأته في كل الأحوال والأزمان ، ولا أجدني مؤهلاً في الخوض بصفة الشجاعة لديه حيث تتشابك هاتان الصفتان : الجرأة والشجاعة إلى حد الوصول إلى المنطقة الرمادية ؛ من الأسود القاتم والأبيض الناصع .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : هل يمكن اعتبار قتله لرفاق دربه وهم عزل دون سلاح من قبل سلطته التي تتصف بكل صفات البطش وجهاً من الشجاعة والفروسية ؟ وهل أن إنهاء الانتفاضة المشهورة في آذار 1991م بتلك الصورة المأساوية البشعة ، وادعاء الانتصار في حرب الخليج الثانية بعد ذلك الانهيار المذل الفاضح والصريح ، هي شجاعة أيضاً ؟ .

لقد كان السيد النائب يفرض احترامه على الجميع بما فيهم أقرب المقربين إليه، وعلى حد علمي أنه طلب أن ينادى بـ "سيدي" ، وقد أكون من القلائل الذين لم ينادي رئيساً أو نائباً بهذه الصفة وبمرور

السنين الطويلة وبعد منتصف السبعينات أخبرني أن أخاطبه بالسيد النائب بدل مناداته بأبي عدي، ولا أجد من ضير أو عدم معقولية بذلك ، ولعل قسماً من الناس قد اطلع على قصة الحادثة التي أنّبَ فيها صدام أحد الأطباء في مستشفى اليرموك حين خاطبه بكلمة "أستاذ" .

ومن المفيد أن أتطرق إلى بعض الجوانب التي تساعد على فهم هذه الشخصية، فقد هاتفني يوماً أثناء مسؤوليتي في رئاسة قسم الطب وطلب مني أن أساعد أحد الطلاب في نتيجته الامتحانية ، وكان جوابي مختصراً وواضحاً أن ليس في المعقول ولن يرتضي سيادتكم تخريج طالب غير مستحق للنجاح وربما سيكون لاحقاً معالجاً لأطفالك وعائلتك ، وأجاب: أطمئنك يا دكتور بأنه بعد التخرج لن يمارس الطب ، وقد تناهى إلى مسامعي أن هذه الطبيب المفترض قد اشتغل في المخابرات ولقى حتفه ونهايته فيها ، وكان السيد النائب نادراً ما يزورني في مدينة الطب ، وقد زار زملاء آخرين .

وفي صبيحة أحد أيام 1979م زار مدينة الطب وسأل في حينها عامل المصعد هناك : متى يداوم الدكتور فرحان باقر ؟ . فأجابه : سيدي ، إنه يداوم عند الساعة الثامنة صباحاً ، إلا إذا كانت لديه محاضرة في كلية الطب فإنه يأتي بعد انتهائها . وقد كنت في ذلك اليوم ألقي إحدى المحاضرات في الكلية ، بعدها صعد السيد الرئيس إلى الطابق الخامس المكون من وحدتين : الرابعة والخامسة ، وتوجه إلى الوحدة الرابعة لتفقدها وأظهر عدم رضاه من أدائها ، ثم توجه إلى الوحدة الخامسة التي أتشرف برئاستها وتأسيسها وأفتخر بأدائها على مر السنين ، فوجد الأطباء والممرضات وجميع أفراد كادرها الطبي والعاملين فيها كل في مكانه ووجد نظافتها متكاملة وجميع المرضى ممتنين وشاكرين لأداء

الوحدة وخدماتها ، ونالت هذه المشاهدة استحسان السيد الرئيس ، فأنعم على زميلين مقيمين لدي في الوحدة بزمالة دراسية تخصصية إلى إنجلترا وهما الدكتور مصطفى مجيد والدكتور هاشم مجدي هاشم وقد سافرا بالفعل بعد ذلك ونالا زمالة الكلية الطبية الملكية البريطانية ، وليس لي تفسير كيف يمكن لرئيس دولة مسؤول أو نائبه إغفال وإهمال تكريم رئيس الوحدة ومهندسها ومن أكسبها صفة أحسن وحدة باطنية في مدينة الطب ؟ . ولرئيسة الممرضات السيدة كميلة ذات الكفاءة المتميزة ، ولعل للقارئ تفسير سيعرفه مما سيأتي ذكره لاحقاً .

وبنفس الزيارة التي ذكرتها تجول السيد الرئيس في ردهات المرضى واختار أربعة منهم لتسفيرهم إلى خارج العراق للعلاج على حساب الدولة ، وكان الاختيار بشكل عشوائي . وحين أنهيت محاضرتي في الكلية ذهبت إلى عملي في مدينة الطب فأخبروني عن زيارة السيد الرئيس ، وفرحت بانتخاب الزميلين من وحدتي ، وحين سألتهم عن كيفية اختياره للمرضى الأربعة للعلاج في الخارج ؟ كان الجواب أن الاختيار كان عشوائياً دون الرجوع إلى الملفات أو السجلات الطبية ، وكان أحد هؤلاء المرضى الأربعة مصري الجنسية وله تاريخ طويل في الإدمان على المخدرات وسجله مليئ بالمخالفات القانونية ، والمريضة الأخرى كانت عجوز طاعنة بالسن وتشخيص مرضها يدل على أن الحالة متقدمة جداً ميئوس منها ، ولا يوجد في الشخصين الآخرين ما يؤهلهما لهذه المكرمة حسب العرف والتعليمات الجارية ، حيث أن من البديهي أن تسفير المريض للخارج للعلاج يكون لسببين وهما : عدم إمكانية التشخيص لحالته بما يتوفر لدينا من امكانيات ، أوإن يكون مصابا بمرض يصعب علاجه داخل القطر، وحزمت أمري لمقابلة السيد الرئيس

لأشرح له وجهة نظري الفنية بخصوص تسفير المرضى خارج العـراق وأن اختيار المرضى دون سبب وجيه قد يترك انعكاسـات وانطباعـات سلبية لدى الجهات التي سيتوجهون إليهـا للعـلاج بتقيـيمهم لمسـتوى وممارسة الطب عندنا في العراق ، والذي كـان رصـيده عاليـاً جـدا بمنجزاته ومنشوراته ونتـائج امتحـان M.R.C.P ومشـاهداتهم أثنـاء زياراتهم المتكررة للمحاضرات أو لفحص شخصية مهمـة ، فاتصـلت بسكرتير مكتب صدام الخاص وحين أخبرته بالتفاصيل نصحني بتـرك هذا الموضوع حيث قد يكون قرار السيد الرئيس لسـبب سياسـي ، ولا يوجد من يعترض على قرارات السيد الرئيس .

التقاعد المبكّر

وبعد ما يقارب أربعة أشهر من إقالة الرئيس البكر؛ فوجئـت الأوسـاط الطبية بقرار فوري من مجلس قيادة الثورة – برئاسة صدام – بإحالة 48 أستاذاً من جامعة بغداد وكبار وزارة الصحة على التقاعد ، ولم يبلغ أي منهم السن التقاعدية ، وكانوا من مختلف مذاهب البلد ومن كلا الجنسين ، ومن الغريب أن اسمي قد ورد في صدر القائمة ولم أكن أكبرهم سـناً ولا يفسّر ذلك باستخدام الترتيب الهجائي المتعارف عليه في أسماء القوائم . لقد أعيا الجمهور العراقي تفسير هذا القرار الثوري ، ولا أزال بعد هذه السنين الطويلة أجهل التفسير ، ويبقى أولادي في حيـرة عنـد ملـئهم للاستمارات الخاصة في بعض المؤسسات حين ترد فقرة "مهنـة الوالـد وسبب تقاعده" ليجيبوا : "لا أعرف" .

وقد كتبت في حينها أمهات الصحف البريطانية ، وخاصة المجلة الطبيـة الشهيرة BMJ لسان حال الجمعية الطبية البريطانية مواضـيع عديـدة

تستنكر وتستغرب هذا القرار تحت عناوين مثيرة مثل " مجــزرة مدينــة الطب في بغداد" و " ما هو ثمن الحرية ؟ " .
وقد كتبت الصحيفتان معلومات تفصيلية عن خمسة من ضحايا المجزرة وهم الاساتذه فرحان باقر وسالم الدملوجي وخالد القصاب ولمعان أمــين زكي والدكتور محمد علي خليل .
ولا بد أن يكون لأكباش الفداء والذين اســتُعملوا لتنفيــذ هــذا الحــدث التاريخي "المشرف" علم بسبب هذه القائمة ومنهم من لا يزال على قيــد الحياة، وبرصيد من هدايا " القائد " لهم .
يجمع الكثيرون أن القائمة المذكورة تكوّن العمود الفقري لكليــة الطــب العراقية، ومن قام كيانها على أكتافهم ومن مفارقات هذه القائمة أنها قــد احتوت على اسمي الأستاذين الوحيدين اللذين يقومان بتدريس أمــراض الجهاز التنفسي في الكلية وهما : الأستاذ الدكتور سالم الدملوجي رحمــه الله والأستاذ الدكتور فرحان باقر – كاتب هذه السطور– ولا بد أن تكون للقيادة بصيرة ثاقبة ! وتبع هذا القرار إحالة مجموعة أخرى من أطبــاء مستشفى الكرخ الجمهوري على التقاعد بسبب وصولهم المستشفى بوقت قصير بعد وصول السيد الرئيس – صدام – وقد يكون السبب وجيهاً من وجهة نظر البعض .
لم يحاول أحد الأطباء والأساتذة المحالين على التقاعد في القــرار الأول التماس إعادة النظر في الموضوع ، بل على العكس ، فقد أظهــر قســم كبير منهم عدم الاكتراث ، واعتبرته أنا ولا أزال وســاماً مــن القيــادة لشخص قدم خدماته الطبية التي لا أريد تكرار وصفها لفتــرة امتــدت لثلاثة عقود من عمر الزمن ، والتي ثمّنها فارس العرب بمكارمه . ولئن رفضت رواتب وهبات مالية وتعويضات عن أتعاب أيام وليالٍ وأشــهر

ولسنين طويلة فلقد أغناني الله بما هو أكرم من المال والملك ، وهو ما كسبته من أجيال كثيرة من طلاب وممن تعلموا وتعلمت منهم الكثير ومن جمهور كبير جداً من المرضى الذين عالجتهم ، ويشكر معظمهم الخدمات المخلصة البعيدة عن الكسب والمادة . ومن كراماته علي هو عدم موافقته على سفري خارج العراق للعلاج بعد أن اكتسبت المعاملة صورتها النهائية وبموافقة مجلس قيادة الثورة برئاسته في يوم 18/ 8/ 1979م .

وعند تبلغنا بالأمر الإداري خططنا أنا وزملائي في الوحدة الخامسة – المعروفة بتاريخها اللامع – وهما الأستاذان الدكتوران مهدي مرتضى وحامد المنذري ، ونحن نشكل ثلاثة أرباع الكادر التعليمي للوحدة ، أن نترك الوحدة في نهاية الدوام الرسمي ليوم القرار لحدّ الدقيقة الأخيرة ، وكانت الممرضات والزملاء الآخرون في توديعنا وعلامات الحزن والأسى واضحة على وجوههم ، ولم يحضر لتوديعنا أحد من مسؤولي الكلية أو مدينة الطب ، ولم نستلم حتى كتاب شكر لكل تلك الخدمات .

تذكرني تلك الحادثة بحالات في بلدان ذات حضارات "قديمة" في أوروبا و "جديدة" في أميركا لا تمتد لآلاف السنين ، فحين تنتهي خدمات موظف أو فراش أو سكرتير القسم يقام له احتفال ويقدم له هدية رمزية وكلمة شكر مناسبة يلقيها المسؤول عنه أو رئيس ذلك القسم أو الدائرة ويجيب الموظف المعني بكلمة مماثلة تناسب الموقف .

ظل موضوع إحالة هذه الكوكبة الطبية لغز يحير كل ذي عقل وبصيرة، وربما قد وصل إلى أسماع المتتبعين لهذا الموضوع أن السلطة وبعد سنوات عديدة قد استدعت هؤلاء – ممن تبقى منهم داخل العراق – لاجتماع عاجل لرفع وتحسين مستوى كليات الطب العراقية ، وقدمت لهم رواتب عالية وصلاحيات واسعة تصل إلى حد إحالة عميد كلية الطب

على التقاعد وإخراجه من منصبه – إذا ما اقتضى الأمر – . ولكن السلطة لم تقدم أي اعتذار أو ندم لما حدث من غبن لهؤلاء الأطباء في السابق نتيجة ذلك القرار الجائر .

كان موقف الدكتور رياض إبراهيم رحمه الله – وزير الصحة آنذاك – مشرّفاً ، حيث استحصل موافقة الجهات المسؤولة بإمكانية استئناف ممارسة الطب في العيادات الخاصة للأطباء المشمولين بذلك القرار ، كما قام باستثنائنا من حظر السفر الذي كان معمولاً به ومطبقاً على من أحيل على التقاعد من أطباء وكبار موظفي الدولة . وفي أعقاب الإحالة على التقاعد اجتمع وزراء الصحة العرب في اجتماعهم الدوري وتوجه وزير صحة البحرين إلى السيد وزير الصحة العراقي طالباً استعارة بعض هؤلاء الأساتذة المتقاعدين لتأسيس كلية طب ناشئة في البحرين ، ولم يُخفِ الرجل امتعاضه من إحالة هذا العدد والنوع من الأطباء على التقاعد ، وقد يكون هذا الامتعاض أضاف نقاطاً سلبية في صفحته لدى الحزب القائد .

أخبرني مصدر موثوق أنه دُعي إلى اجتماع حاشد في القصر الجمهوري منتصف سنة 1975م ، وضم ذلك الاجتماع وزراء ووكلاء وزراء ومديرين عامين ورؤساء المؤسسات وكبار مستشاري الحكومة ، كما حضر الاجتماع كافة القيادات العليا لحزب البعث وكادره المتقدم ، وألقى السيد النائب في ذلك الاجتماع خطابًا طويلاً تطرق فيه للحالة الاقتصادية والسياسية والأمنية للبلد وبتركيز أكثر عن المشاكل الإنتاجية وتزايد القوة الكردية في الشمال . وكان يومها متشنجاً وهدد المعارضة السياسية والحركات الكردية ، ومن ذلك الخطاب قوله : إن جميع العراقيين " أصحاب مزاج " ، مثل "فرحان باقر" نقول له : "هيج ويكول لا مو هيج"

– باللهجة العراقية – وتعني : نقول له كذا فيجيب ليس كذا بل هكـــذا . وكرر هذا القول مرتين ، ولم يستوعب الحاضرون تفسير كلامه أو إيجاد ربط بين خطابه العام ومقولته تلك عني ؟ وكيف حشر اسمي هنا ؟ ولـــم يكونوا مطلعين على علاقتي بالسلطة إلا بكوني طبيب الرئاسة الخـــاص وهو الواقع الصحيح ، ومن يدري فربما تكون النقطة الرمادية في قلـــب السيد النائب تجاهي قد بدأت منذ ذلك الحين أو قبله بفترة .

تأخذني السنين إلى أواخر سنة 1978م ، ومرة أخرى في فترة دردشـــة مع صدام بعد استشارة طبية ، بدأ السيد النائب بمناقشة مواضيع عامـــة إلى أن قال : إن موقع الرئيس البكر هو اسمي وصوري ولغايـــة فتـــرة محددة فقط . ولم يصدر مني وقتها أي انفعال سواء كان سلبياً أو إيجابياً ، وأخذته كأمر واقع ولكني لم أكن أتوقع تنازل البكر وتنحيتـــه بالشـــكل الذي حدث . ولم أعرف دافع صدام لهذه المقولة وأخباره لـــي بالـــذات ولربما كانت محاولة وإشارة منه لتحريكي من معسكر البكر – كما يعتقد وحسب تصنيفه – إلى معسكر آخر – معسكره هو – ولم يزدني ذلك إلا قناعة بأني طبيب الجميع ولا يمكن لمهنتي إلا أن تكون كوحدة متكاملـــة كما شرحت ذلك للرئيس البكر قبل سنوات ، ولم أنقل هذه القصة إلى أي جهة سواء كانت سياسية أو مهنية ، بل لم أقصها حتى على رفيقة حياتي – زوجتي – أو للسيد البكر ولحين كتابة هذه الكلمات .

وحدث بنفس الفترة الزمنية ، حادث أثار استغرابي ودهشتي الشـــديدين ، وهو أن تلفوني الخاص في العيادة والبيت كانا تحت المراقبة ، وجلـــب هذا الإجراء استغراب موظف البدالة وغيره ممن كانوا على علـــم بـــأن كبار مسؤولي الدولة – كرئيس الجمهورية ونائبه وآخرين – هـــم علـــى اتصال مباشر معي لأمور مهنية وطبية ، وتوقف الهاتف عـــن العمـــل

لفترات طويلة وكانت زوجتي تجتهد لإصلاح الخط إلى أن استلمت رسالة من أحد المخلصين فحواها "أن لا تكلموا أحداً لإصلاح التلفون ، وإن تركه عاطلاً هو أحسن الحلول" ! .

لم تقتصر هذه الأعمال على مراقبة الهاتف ، بل تعدى ذلك الى مراقبة منزلي حيث ابتدأت مشاهدة سيارة بأشخاص تتواجد قريبة من مسكني بشكل شبه دائم ، ولم أتجه يومي لمفاتحة من بداخل السيارة بأي شيء أو استفسار ، ومن يدري فربما وضعوا داخل بيتي أحد أجهزة التنصت التي يصعب اكتشافها ، أثارت كل هذه الأمور استغراب المقربين ، مما حدا بنائب الرئيس طه محيي الدين معروف أن يسألني : ألم يكن السيد الرئيس صدام قبل وقت ليس ببعيد يسألك هاتفياً عما يصلح له من طعام ؟ وكان هذا هو الواقع بعينه ومثار استغراب نائب الرئيس طه محيي الدين .

ولعل من سرد هذه الحوادث تتهيأ أبواب أخرى للخوض في بعض نواحي هذه الشخصية الأسطورية التي حكمت العراق العظيم وشعبه العريق لسنوات طويلة تغيرت فيها تركيبة وحياة الشعب العراقي من الجذور .

ولا يفوت أي مشاهد بسيط ومهما كانت ثقافته أو تعليمه من الخروج بانطباع عن الشخصية النرجسية المجسدة في السيد الرئيس ، ولم أرَ في حياتي أكثر نرجسية منه ، ولعل السلطة أو القوة أبرزت هذه الصفة لديه ، ومن ظواهرها وضع صوره في كل دوائر الدولة الرسمية ، وأبقى صورة البكر لفترة قصيرة أزيلت بعدها لتبقى صورته الوحيدة . ولعلني لا أجافي الواقع إن كررت قول البعض بأن عدد الصور المطبوعة لصدام في مختلف الوضعيات والأزياء واللباس قد تجاوزت عدد سكان

العراق جميعاً ، وفرضت الأجهزة المخابراتية والأمنية وضع صورته في جميع البيوت التي كانوا يدخلونها للتفتيش أو لإجراءات أخرى ، وملأت صور صدام جميع ساحات ومدارس ومؤسسات مدن وقرى العراق بمختلف الوضعيات والأزياء التي كان يرتديها ، وكذلك فقد ملأت تماثيله وأصنامه كل مكان أمكن نصبها فيه وتجاوزت تلك التماثيل 2500 تمثال ، كما سميت الكثير من المؤسسات والمنشآت باسمه كالجسور والمساجد والمستشفيات والمدارس والجامعات والشوارع والساحات حتى جرى تغيير مدينة الثورة التي أنشأها عبد الكريم قاسم في بداية الستينات ويسكنها الآن أكثر من مليونين غالبيتهم من الطبقة الفقيرة – من الشيعة – إلى اسم "مدينة صدام" .

وتكاد لا تخلو ميدالية أو وسام من اسمه ، وقد أمر صدام أن يضاف اسمه ذات مرة إلى إحدى تلك الميداليات حين افتقد وجود اسمه عليها ، وكان يشرف بنفسه على تصاميم الأوسمة والتماثيل ، وباستلامه لرئاسة الجمهورية في العراق أوفد المهندسين إلى الخارج ليطلعوا على قصور العوائل المالكة والأمراء ورؤساء الجمهوريات التي أقيمت في العصور الغابرة في جميع بلدان العالم وتحديداً قصور أوروبا القديمة ليشاهدوا ما يليق أن يصمم ما يشابهها له ، وقد بلغ عدد قصوره الرئاسية المعروفة في بغداد ثمانية إضافة لعشرات غيرها في حواضر ومدن العراق الأخرى كسدة الهندية والبصرة والموصل وسرسنك وبابل وأماكن أخرى . كانت تلك القصور مصممة بغاية الترف والإبداع الهندسي ، وكان ذلك غير متعارف عليه في تاريخ العراق الحديث، فقصر الزهور لا يزال يتكلم بلسان مبين عن بساطته وتواضعه وهو دار ملوك العراق : غازي وفيصل الثاني رحمهما الله، وقصر الرحاب (النهاية) الذي لا يرقى إلى

منزلة بيت كبير في حي المنصور أو الجادرية ببغداد كان يسكنه عبد الإله الوصي على عرش العراق وبقية أفراد العائلة المالكة ، وبيت الزعيم عبد الكريم قاسم لم يكن أكبر من بيت موظف بسيط بدرجة ملاحظ في إحدى الوزارات ، وبقي السيد البكر في بيته إلى أن أنشأت له السلطة – وهو على رأسها – بيتاً حديثاً لم يخرج عن مساحة أو طريقة بناء البيوت الحديثة المجاورة له للسنوات الاولى من حكمه .

وما يتوج هذه النرجسية هو طبع صورة الرئيس – صدام – على جواز السفر قبل أشهر وهو ما لم يسمع بمثله في جميع دول العالم . وقد يصاب الذين عاصروا عهد الديكتاتور بغثيان ودوار حينما يشاهدونه عند إعادة بناء مدينة بابل الأثرية في الثمانينات ؛ حيث أمر مهندسيه بنقش اسمه على حجر الأساس بعمق كبير وبخط كوفي تحت اسم "جدّه" – كما يدعي– "نبوخذ نصّر" ليوحي إلى الأجيال العراقية القادمة بعظمة وخلود شخصيته وعمق تاريخه في العراق . لم تعترف "اليونسكو" بهذا التجديد لغاية الآن بسبب تغيير الموقع . ولا يمكن الإلمام بتحليل شخصيته دون الغور في جوانب أخرى من صفات هذه الشخصية الغريبة ، وقد تكون الحصة الأوفى من تلك الجوانب هي "داء العظمة" ، وهي الصفة الملازمة له ولا يمكن لأيٍ مهما تضاءلت قوة ملاحظته من رؤيتها . وقد يرجح عدد من الباحثين والمصادر العلمية إلى تسمية هذا الداء "بجنون العظمة" ؛ وهو في هذه الحالة داء على صاحبه وداء أكبر على من يقع تحت حكمه ، وقد يدخل في مركب داء العظمة عوامل متعددة ؛ ويشكل العامل الجيني أحدها – وليس بالضرورة أهمها – يضاف إليه الغرور والنرجسية المجسمة والإنجازات كتأميم النفط . وقد لعبت التصفيات التي تمت بحق مراكز القوى ورجال الثورة في العراق ورجالات العهود

السابقة دوراً في هذا المركّب الخطير. ويضاف إلى كل هذه العوامل ما جاد به الكتاب والشعراء المرتزقة والمنافقون والتطبيل الإعلامي في الأناشيد التي كانت تصدح ليل نهار مشيدة وممجدة بالرئيس القائد وبشكل غير مسبوق في تاريخنا المعاصر، وقد جاء في أبيات بعض الشعراء ما تخطى كل المقاييس ، فقد قال أحدهم في قصيدته مخاطباً صدام : لولاك ما طلع القمر.. لولاك ما نزل المطر.. الخ ، وقال آخر: لو لم يقل أن لا نبي بعدي.. فإنك بحق أحد الأنبياء ، ومديح الحكام عادة متبعة منذ فجر التاريخ وفي العصر الحديث ، وقد شاهدناه في العهد الملكي والقاسمي والعارفي ، ولكن ذلك المديح لم يقارب الأبعاد اللوغارتمية التي مورست مؤخراً .

وتُعيد نرجسية الصور الى الذاكرة حادثة الزيارة التي قام بها الزعيم عبد الكريم قاسم فجر أحد الأيام الى أحد المخابز خلال جولاته الليلية حيث وجد صورة كبيرة له معلقة في المخبز فنادى على صاحب المخبز قائلاً : "أرجو تصغير الصورة وتكبير الرغيف للمواطنين" .

وقد جاء منافق آخر باقتراح عبقري يقضي بالاستفادة من علم الاستنساخ الحديث لاستنساخ شخصية صدّام الفريدة لتستعمل في الأجيال المقبلة وللمستقبل الطويل ليحكم هذا الشعب المسكين على مدى الزمن ، وقد جلب انتباههم الحاج "خير الله طلفاح" كما أسلفت حيث قال بحضوري أثناء تواجده مع الرئيس البكر والسيد صدام : إن هذه الوجوه أو الأشخاص هم نفس من رفع سيارة الملك فيصل الثاني وهم الذين وصفوا الزعيم عبد الكريم قاسم بأرفع الصفات .

وبين يدي الآن لوحة تحمل 98 اسماً لصدام ، تمجده وتعظمه وتقدسه ، لتجسد فيه شعور ومركب العظمة .

ولم يصل إلى علمي واطلاعي إلى ما كيل للسيد الرئيس بأكبر وأكثر مما جاء على لسان القائد المؤسس وفيلسوف الحزب "ميشيل عفلق" حيث قال: "إن الرئيس صدام ، هو هبة السماء إلى الأرض وهبة الله إلى العراق" . ألا يكفي هذا بأن يصل بصاحبه إلى درجة الجنون وليس بمس منه فقط . ولكن ما يسلي ويخفف وقد يلغي هذه المقولة الكبيرة جداً ، هي رسالة الفيلسوف المذكور السابق إلى الرئيس حسني الزعيم وما فيها من توسل وإهانة واستغفال متناقضة مع ما جاء أعلاه ولا تتماشى مع مفكر كبير وصاحب مدرسة وعقيدة .

وإذا ما صنفت الأمراض في الطب إلى درجات متفاوتة في الشدة ؛ كبسيط ومتوسط وشديد ، فإن حالة الرئيس صدام كانت من الشدة بمكان ، لقد مارس عقد ومركب داء العظمة بشكل مستمر ، حيث أقال من يريد بجرة قلم ، وتوقيف أي فرد أو مجموعة كما يرى ويوحي إليه خياله وتصوره وتصفية أي شخص كبر أو صغر حجمه وحالته الاجتماعية ، ناهيك عن التعذيب الذي سيأتي ذكره بعدئذ ، ويراودني شعور بأن صدام قد وصل إلى حد أنه يتصور عن نفسه بأنه يحيي ويميت "استغفر الله" ، وقد يقول القارئ: نعم ، يمكن لصدام أن ينهي الحياة بسهولة ، ولكن كيف يحيي؟ . وأقول : لقد استعملت الحياة هنا مجازًا ، فلقد أوجد صدام أناساً من العدم وأوصلهم إلى مراكز عليا ووهب لهم أموالاً وثروات طائلة لم يحلموا بها .

استعمل هذا الشعور بالقوة والعظمة في مراحل مبكرة من الحكم ، فقام بتسفير ما يزيد على 350000 شخص عراقي إلى إيران بحجة التبعية وبشكل لا إنساني وتم الاستيلاء على بيوتهم وأموالهم ومتاجرهم وتركوا على الحدود مجردين من أوراقهم الثبوتية المهمة ، ولاقى هؤلاء

المساكين ظروفاً قاسية حين تركوا مشاة سيراً على الأقدام على الحدود الإيرانية دون طعام أو شراب أو مأوى لأيام وأسابيع عديدة ، ومن المفارقات الغريبة احتفاظ السلطات البعثية بأولادهم في العراق الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية ليخدموا في الجيش ، وهذه من المآسي الكبيرة التي تجر بأذيالها في العراق لغاية الآن . والأغلبية الكبيرة ممن أطلق عليهم لفظ التبعية هم من العراقيين الأصليين ، من آباء وأجداد عراقيين والكثير منهم من العوائل العراقية المعروفة بانتمائها العربي الأصيل ومن بينهم كتاب وشعراء وأدباء ممن شارك بإثراء الأدب العربي ، وتحضرني قصة قصيرة أوردها أحد الأطباء في مجلس الرئيس البكر ، حيث قال : لقد حاولت عائلتي الحصول على الجنسية الإيرانية في أواخر الحكم العثماني للتهرب من الخدمة العسكرية في الجيش العثماني الذي كان يرسلهم إلى القوقاز ولم يسمع أي خبر عنهم آنذاك في الحرب التي كانت تسمى حينذاك "حرب السفربر" ، وفشلت عائلتي في تهيئة الليرات الذهبية لإتمام حيازة الجنسية الإيرانية ولم تحصل عليها . وبهذه الطريقة اكتسبت الجنسية الإيرانية مجموعة كبيرة من الشيعة العراقيين ، وظلت هذه المسألة كبقعة إسفلت أسود على ثوب أبيض يستعملها السياسيون كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

وعوملت فئة الأكراد "الفيليين" بشكل لا يتناسب مع الأعراف القانونية والإنسانية وحجبت عنهم الجنسية العراقية بعد أن عاشوا لمئات السنين في العراق وكانوا يؤدون واجبهم تجاه بلدهم من ضرائب وخدمة في الجيش.. الخ . ولم يقتصر إجراء التهجير على التسفير خارج العراق ، بل مارست السلطة عملية تهجير داخلي حين قامت بتهجير الأكراد من مناطقهم الأصلية المعروفة للقاصي والداني إلى مناطق أخرى داخل

العراق تختلف كلياً عن مناطقهم جغرافياً واجتماعياً وبيئياً ومــن حيــث العادات واللغة .

ولعل القانون المسمى "قانون الثرثرة" واحد من أبرز الأمثلة على الطبيعة التسلطية لنظام ما بعد البكر ، حيث ينص على أن كــل مــن يتعــرض بالانتقاد للسيد الرئيس أو أنجاله أو نوابه أو رجــال حاشــيته يتعــرض لأقسى العقوبات التي قد تصل إلى السجن لمدة عشرين عامــاً أو اكثر. هذه وغيرها من القوانين كانت تصدر من أكبر مصدر للقوانين وأعني به مجلس قيادة الثورة . وعندما أشار بعضهم إلى تعاظم الســلوكيات التــي تخترق القانون أجاب : ما هو القانون ، أليس هو ما نلعب به في الليــل ونطبقه في النهار؟! .

كان رأي الرئيس قاطعاً ولا يقبل المناقشة ، ولا غرابة في ذلك فمقولــة "نفذ ثم ناقش" الشهيرة هي أحد برتوكولات المطبقة للحزب الحاكم ، وقد يسمع آراء الآخرين لكن هذا لا يغير شيئاً في قراراته ، وحتى قــرارات المجلس النيابي لا تخرج عن إرادته وما يرسمه لها .

لم يكن يستجيب لمنطق أو علم أو معرفة ، ولا يستمع إلى صوت الحكمة ، وليس لديه مستشارون ، ويفتقر إلى خلفيــة عســكرية أو أكاديميــة – وسبحان الخالق علام العلوم .

ومن الصفات المميزة له الممارسات السادية الواضحة والتي نُفّذت فــي مختلف الأشكال ومنذ بداية حكمه حيث تعرّض للتعذيب أناسٌ كثيــرون ممن كانت لهم مكانة عالية وسمعة وطنية مرموقة كمــا أنهــم عرفــوا بخدمتهم لبلدهم وحبهم له لكن هذا لم يشفع لهم وعرضوا للتعذيب وحتى التصفيات ، وكثيرون يعرفون حفلات التعذيب التي لا يمكن وصفها أو التعبير عن بشاعتها بدءًا بالشتم والضرب بالسياط والتعليق من اليدين أو

القدمين في المراوح وقلع الأظافر والكي الكهربائي وبأعقاب السجائر والاعتداءات الجنسية ، وإجبار المعتقلين على تنظيف المراحيض ، وقد صفي عدد كبير منهم إما بقرار تصفية أو بسبب التعذيب أو الإذابة بالتيزاب "حامض النتريك" وغيرها .

وقد تدربت فرق التعذيب مع الوقت ومن خلال الإغراءات المادية والمعنوية للقيام بهذه الأعمال ، ومن يدري لعلها جزء لا يتجزأ من تكوينهم النفسي . وكم من المواطنين والمواطنات اختفت آثارهم وحين تجاسر أحد من عوائلهم للسؤال عن مصيرهم كان يقال له أن من الأفضل له أن يكف عن ذلك وإلا سيعرض نفسه للاختفاء والتعذيب والقتل . وبالفعل فقد حدثت هذه الممارسات مراراً وكم من إفادة واعتراف أخذت تحت التعذيب أو بالتهديد بالاعتداء على عرضه أمام عينيه . وقد ورد في إحدى التعليمات السرية لدوائر الأمن أن العراقي شديد الحساسية تجاه عرضه ويجب أن لا يتوانى المحقق عن استعمال هذه الوسيلة للوصول إلى مبتغاه ، وقصص قصر النهاية والسجون الأخرى لا تنتهي ومن كتب له ان يخرج منها حيًا وببقية من قواه العقلية ولدية الجسارة الكافية فسيكون لديه الكثير مما يرويه ويكتب عنه .

ورغم أن السادية قد بدأت ممارستها في وقت مبكر في الدهاليز والأقبية وبشكل سري ومحاطة بالكتمان حتى إن الكثيرين لا يعلمون عنها شيئاً ناهيك عن التهديد بالويل والثبور لمن يفشي أي معلومات عنها ، إلا أن بعض صورها البسيطة ظهرت في مرسوم جمهوري يمثله قانون "بتر الأذن" الذي طبق على الكثيرين ممن تخلفوا عن الخدمة العسكرية أو هربوا منها . وقد سبّب هذا أكبر العقد النفسية لهؤلاء وعوائلهم ، وقد اخبرني بعضهم أن ابنه فضّل الانتحار بعد بتر اذنه ، وقد أصيب عدد

من الأطباء ومن نفذ هذا الإجراء بانهيار عصبي ، وكان التعذيب في انتظار من يتردد في إجراء هذه العمليات البشعة . كما قطعت ألسنة بعض المواطنين ممن تفوهوا بما لم يعجب الحاكم وأجهزته .

ومما يستحق الذكر والتنويه ذكر بعض الحوادث التي تجسم مساوئ وبشاعة الحكم .

فقد اعتقل طبيبان شابان وهما الدكتور اسماعيل حسن التتر استاذ أمراض الجلدية في كلية طب بغداد وهو أحد أطباء القصر والتهمة أنه لمز ببعض المسؤولين في حفلة مع زملاء بلندن وتكلم عن امراضهم حيث سجل هذا الكلام واعتقل معه زميل له الدكتور هشام ماهر السلمان أخصائي طب الأطفال المعروف بقدرته المهنية وحسن سلوكه وشفافيته وحبه للنكته إثر مكالمة تلفونية بينهما ، عذب بالسجن لأشهر وأعدم بعدئذ ولم يشفع توسل زوجة الأول لدى الرئيس .

وموضوع الدكتور رياض ابراهيم استاذ الأمراض النسائية بكلية بغداد وهو حزبي قيادي ومقرب للسطلة ، عرف باستقامته وتضامنه مع السلطة شوهت قضيته بأنواع الشائعات منها وفاة أحد اقارب السلطان في مستشفى ابن سيناء بسبب حقنه بمادة البوتاسيوم واستعملوا شهادة أحد الأساتذه بذلك والذي أنكرها ونفى تدخل الوزير بهذا الموضوع . وأنا أعرف ويعلم كثير من زملائي بهذا الموضوع حيث لم يكن للوزير الدكتور رياض دخل بالمريض عن قريب أو بعيد وليس له علاقة باستيراد الدواء ولم يكن هناء خطأ بالدواء المستورد.بل بطريقة اعطائه للمريض .

ولب الموضوع أن السيد الرئيس دعا الى اجتماع للقيادة في سنة 1982 لتبادل الآراء عن الحرب العراقية الايرانية وما أصابها من كر وفر

وتراجع للجانب العراقي ، أدلى المرحوم رياض بدلوه واقترح أن قد يكون من الحكمة والمفيد تنحي الرئيس صدام جانباً ومؤقتاً وإعطاء المسؤولية للسيد البكر ولم يلقى هذا العرض قبولاً واضمرها في نفسه ليعتقل الوزير بعد أيام ويعذب بوحشية وتخمد انفاسه الى الأبد . لم ينفع تهدءة الرئيس لزوجته بعدئذ وأصيبت بداء كآبة لتلقى ربها بنهاية المرض وفي الغربة .

وموضوع المرحوم اللواء راجي التكريتي معروفة بالأوساط الطبية ومن أشد الحوادث إيلاماً للذاكرة العراقية للخلاص ممن اختلف مع السلطة في العقيدة وكان المرحوم راجي من القوميين المعروفين بسيرته ومن أقارب كبار رجال السلطة ، معروف بمهارته المهنية بفرعه . اتهم بالإشتراك في مؤامرة حيكت بالاردن وعليها تسجيلات ، جلب الى بغداد وبطريقة غريبة وكانت نهايته بتسليمه لكلاب جائعة .

ولم يسلم الدكتور عبد الرحمن البزاز والدكتور حسين الشهرستاني والسيد طاهر يحيى من أصناف العذاب والإهانة .

إن العقوبات والملاحقات التي طبقها الحاكم ؛ لم تقف عند حد "المُدان" ؟ بل تعدته لتطال الدرجة الرابعة من أقرباءه وعائلته ، ناسخاً النص القرآني القائل : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

إن صور هذه النزعة السادية كثيرة ، ومن المؤلم المبكي قطع رأس من أجبرتها الظروف إلى البغاء أمام باب دارها ، وعلى مرأى من أهلها ولم يسأل المشرع عن السبب الذي دفع بهذه الفتاة إلى الرذيلة ! أليست الحاجة وظروف الحصار والجوع التي أجبرتها على البحث عما يسد الرمق لها ولعائلتها . وإذا كان الحكم على طبيب بالإعدام له ما يسوغه فإن تنفيذ هذا الحكم برميه إلى الكلاب الجائعة هو السادية بعينها لا سيما

أن الحفلة التي تجري فيها هذه العملية هي من أدنـــى وأقســـى حـــالات السادية . وهناك الكثير من الوقائع الحقيقية مما يصعب سرده أو روايـــة تفاصيله إشفاقـــاً على القارئ من أن يتقيأ أو يشـــمئز أو تصـــيبه الآلام النفسية والأرق وليست حادثة قتل عدنان خير الله خال أولاده بخافية على المراقبين كما أن مذبحة صهريه في شوارع بغداد مثل آخر علـــى هـــذه التصرفات ، وهل من رجوع لمن سماهم "شهداء ثورة الغضب" .

كان للقيادة علم شامل وواسع بهذه التفاصيل ، ولطالما أبعد نفسه عنهـــا بإيجاد كبش فداء يلقي عليه التهمة ويحمله المسؤولية ويبرئ نفســـه مـــن هذه الفظائع كما حدث عندما اغلق قصر النهاية بعد ان فاحـــت رائحـــة الفظائع التي ترتكب فيه وعمت القطر كله بل وتعدت حدوده الحديدية الى العالم الخارجي .

الاشتغال في الامارات

وعند تواجدي في سان فرانسسكو – أميركا جرت معي اتصالات كثيـــرة من منطقة الشرق الأوسط للاستفادة من خبرتي ، ومنها رئاسة قسم الطب الباطني في كلية طب الأردن ، ودُعيت إلى الكويت لأسبوعين للتباحـــث حول منصب في الجامعة أو بوزارة الصحة – في الوقت الـــذي كانـــت تموج فيه مخابرات النظام العراقي هناك بشكل كثيف – فشـــكرت لهـــم كرمهم وضيافتهم واعتذرت باحتمال أن أفقد راحتي النفسية هناك ، وفي نفس الوقت عُرضت عليّ وظيفة في صحة دبي ، وجاءتني استمارة من السعودية ، وما أثار استغرابي فيها هو وجود حقل "للطائفة" ! . ووقعت عقداً مع مستشفى حمد في قطر براتب مغرٍ ولكني لم أنفذه ؛ حيث هاتفني معالي وزير صحة الإمارات السيد المدفع ليقول : "سمعنا عنـــك الكثيـــر ويسرنا أن نستفيد من هذه الخبرات". وهكذا رست محطة حياتي القادمـــة

لأصبح رئيساً لقسم الأمراض الباطنية في مستشفى الجزيرة ، ولقد أنجزت فيها الكثير .

وحصل لي شرف معالجة " حُكّام" هناك ، ولكن من نوع آخر غير الذي اعتدنا عليه في وطننا . وامتدت خدمتي لمدة تزيد على 4 سنوات وانتهت باستقالتي التي لم تحظَ بترحيب السلطة ، حيث منحوني كل ما طلبت وأردت من سكن مريح ومدارس لبناتي ومقعد في الجامعة لإحداهن . "وقد كتبت صحيفة الاتحاد الإماراتية عموداً من قبل الصحفي المشهور الاستاذ حبيب الصايغ واستنكار تفريط وزارة الصحة بالكفاءات العالية بسبب دريهمات" والواقع ان الاستقالة كانت لأسباب شخصية بحته رجعت إلى ممارسة المهنة في أميركا "لوس أنجلوس" لأعود ثانية إلى دولة الإمارات للبدء بعيادة خاصة تحت الرغبة العارمة لعائلتي التي أحبت هذا البلد الجميل .

بدايات المصائب أو بداية النهاية – الحرب العراقية الايراني

بعد ما انتهت الحرب العراقية الايرانية سنة 1988 بعد كر وفر وانتصار العراق بأمر ايقاف القتال من الأمم المتحدة وبخسارة مئات الآلاف من الشهداء قدر بخمسمائة الف وأكثر من ذلك من المعوقين وللقارئ أن يقدر عدد الأرامل والأيتام .

وعانى العراق من وضع اقتصادي صعب فبلغت ديونه للعالم ما يربو على ثلامائة مليار دولار وللإخوة والجيران ما يصل إلى ثلاثين مليار دولار أموال صرفت بحماية البوابة الشرقية لبلاد العرب ! وأغلى من هذه المليارات هو الدم العراقي الزكي والذي ارهق في هذه الحرب والذي لا يعادله أي ثمن بالاضافة الى المعاقين والأرامل والأيتام .

وفي الوقت الذي اطفأت وللغرابة دول غربية لا تدين بالاسلام و لا قريبة من القرابة والجيرة والشهامة العربية المعروفة في المنطقة ولم يكــن أي منها المستفيد مباشرة من تلك الحرب ، أقول لقد أطفأت هذه الدول ديونها المستحقة على العراق في الوقت الذي استمرت ديون الأخوان ومطالبتهم مما كان كجروح عميقة مستمرة ومؤلمة أخرت تعافي دولة العراق ممـــا سببته تلك الحروب واستمرار العقوبات الدولية وخصوصًا الفصل السابع من العقوبات الدولية . قلت سابقـــاً إن الرئيس القائد حاد الذكاء رغم أن عددًا كبيرًا يختلف معي ويتهمونه بالغباء (وسوف أفسر هذا التضارب لاحقاً) . إن المتمعن في دراسة هذه الشخصية يستنتج مــن ممارســاته وأعماله أنها تفتقر إلى الفطنة فكيف يدخل أكبر رأس في المسؤولية فـــي حرب لا ناقة له فيها ولا جمل ، إلا أن يكون" تضخم الأنـــا أو EGO" ؛ فالجمهورية الإسلامية لم تكن تتوقع هذه الحرب ولم تكن مستعدة لها في حين أعد لها الجانب العراقي منذ وقت طويل ، وإضافة إلى عدم وجـــود سبب لهذه الحرب فإنها من الناحية العســكرية والتكتيكيـــة كمـــا يقـــول العسكريون لم تكن صائبة ، حيث تتميز إيران بعمق كبير مقارنة بالعراق ويبلغ تعداد سكانها ثلاثة أضعاف العراق . وقد فشلت حروب سابقة ضد إيران حتى ولو بعد وقت طويل كما يخبرنا التاريخ . وقد تكون هذه أحد أسباب الخلاف بين الرئيس السابق (البكر) والرئيس اللاحق .

لقد استعمل الإصبع الأجنبي مركب الأنا أو داء الشعور بالعظمة لإشعال هذه الحرب وإدارتها على النحو الذي أراده لكـــي يحقـــق مـــن خلالـــه مصالحه بتحطيم قوتين رئيسيتين في الشرق الأوسط وهما العراق وإيران ، لم تسر الأمور كما خطط لها مريدوها واستمرت ثماني سنين عجـــاف اتصفت بالكر والفر ودمرت كل الروابط بين العراق وعربســـتان وهـــي

جزء مقتطع من العراق أثناء احتلال بريطانيا للعراق ولا يـزال عـرب المنطقة يريدون الانفصال عن ايران ، بالرغم مما قام به الغزاة فيها من قتل ونهب واغتصاب وغيرها . وفي قمة انتكاسـات الجـيش العراقـي صرح الرئيس ريغان : "بأننا لن نسمح بسقوط العراق وسـقوط النظـام" وبعد ذلك اختلفت طبيعة الحرب وبدأت الحـرب الكيماويـة والغـازات السامة وكانت الحصيلة خراباً للبلدين ، وبات العـراق مـديناً للكويـت والسعودية بمليارات الدولارات بسبب الدفاع عن البوابة الشـرقية التـي كان وقودها الدماء العراقية الغالية ولكنها للأسف الرخيصة على قيادته . لقد خسر كل طرف ما يزيد على النصف مليون من زهـرات الشـباب وعدد هائل من المعاقين والأرامل والأسرى ولا تزال آثار تلك الحـرب ماثلة ولا يمكن ان يقدر أحد متى ستندمل الجروح والآثار النفسية السلبية بين شعبين مسلمين كانت تربطهما أكثر من رابطة بالإضافة إلى علاقات الجوار والتاريخ .

لم تصدر الثورة الإسلامية إلى أي من دول الخليج أو دول الجوار، ولـم ترجع سيف سعد وزين القوس إلى السيادة العراقية ، ومن المؤكد إن شط العرب لم يعد شطاً للعرب كما كان في العهـد الملكـي أو القاسـمي أو العارفي ، ومع ذلك أقيمـت الاحتفـالات بالانتصـار علـى "الفـرس المجوس"!!.

كان للعراق والكويت وحدة جغرافية واحدة على مر الأجيال لا تفصلهما الحدود ، ويشتركان في اللغة والدين ولهما نفس العادات والمأكل والمناخ والتقاليد ولا يمنع حركتهما من وإلى البصرة وأماكن أخرى خاصة قبـل تقسيم المنطقة إلى دول ومحميات بعد الحرب العالمية الأولى . ولم تكن هذه هي كل الروابط بل تعدتها إلى اختلاط في الدم عبر العلاقات العائلية

حيث تزاوجت العائلات فيما بينها ، وقد تجد عائلة نصفها فــي العــراق ونصفها في الكويت ، ولم يشهد التاريخ الحديث تقاربــًا بينهما أكثر مما كان عليه الحال في السنوات الأخيرة ، فكان الكويت متفاعلاً مع العراق شعباً وحكومة وبرلماناً بالإضافة إلــى الــدعم المــالي والدبلوماســي والإخباري إلى أن وقعت الواقعة الكبرى حيث أصبح واضحــًا للأخــوة في الكويت ما كان يعانيه أخوتهم في العراق مما لم يكونوا يصدقونه إلا بعد أن تعرضوا هم أنفسهم للنهب والقتل والاغتصــاب وعنــدها فقــط استوعب الكويتيون ما كان يعانيه العراقيون . ولنفس السبب الــذي لــم يمكن الكويتيين من صد الطاغية ومحاربته عجز العراقيون عن إزالة هذا الكابوس وهنا تفهم الكويتيون صعوبة ما كنا نعانيه . لقد لاحظ الجميــع الغرور والعجرفة التي تتصف بها القيادة العراقية عندما حــاول كبــار الساسة والحكماء في العالم أن يقنعوا قائد (رابع أكبر جيش في العــالم) بالانسحاب من الكويت والكل يعرف الوتر الحساس الذي ضرب عليــه بوش الأب عندما وصف الجيش العراقي بهذا الوصف إلا صــدام فهــذه هي عقدته الكبيرة . رفضت القيادة مقابلة شخصيات مهمة ولم تســتجب لكل أصوات الحكمة التي دعتها إلى الانسحاب مــن الكويــت رغــم أن التفوق العسكري والتقني اللا محدود لجيش التحالف وأكبر دولة في العالم كان واضحــًا كل الوضوح لكل العالم إلا القائد الذي أصر على موقفه ، وانتهت التمثيلية بهزيمة منكرة وانكسار مهين ولم يكــن لــدى القيــادة العراقية القدرة أو القابلية على إطعام وسد عطش جنودها ولم تكن لديها أي خطة انسحاب تكتيكي أو غيره وقتل عشرات الآلاف منهم ودفن عدد أكبر أحياء تحت التراب وأسر عدد آخر وانتهى المشهد الأخير من هــذه المسرحية بالتنازلات المهينة في خيمة صفوان ، وقــد نجــح الجانــب

العراقي في التوصل إلى اتفاق يتيح له استخدام الطائرات المروحية لأغراض داخلية ، وبعد فترة قصيرة استخدمت هذه الطائرات تحت سمع الحلفاء وبصرهم في سحق وقمع جماهير الانتفاضة التي قامت في ذلك الوقت بشكل عفوي ولم يكن لها جذور أو انتماءات ، وقد شملت الانتفاضة 14 محافظة من محافظات العراق ولم تكن هذه الانتفاضة سوى رغبة من الجماهير بالثأر لكرامتهم وعزتهم الملوثة والمحطمة . لقد صورت هذه الانتفاضة للحلفاء بان لها جذوراً وارتباطات بالثورة الإسلامية الإيراينة وبالملالي . وكان هذا مقصودًا لغايات في نفس يعقوب .

قتل الآلاف من المعارضين والمنتفضين واعتقل آلاف آخرون وسيق بعضهم إلى غياهب السجون الرهيبة وقصفت العتبات المقدسة ولا يزال البعض أحياء يذكرون ما قاله صهر الرئيس (الفريق الركن حسين كامل) عندما اقتحم كربلاء حيث قال : (أنا حسين وهذا حسينكم فلينهض وليشفع لكم) . أما من تبقى من أهل الانتفاضة والذين تجاوز عددهم سبعين ألفا فجردوا من سلاحهم ، وأخرجوا إلى مخيمات رفحة الصحراوية يعانون آلام الغربة وينتظرون أن تتصدق عليهم دول أخرى فتقبلهم لاجئين ليسكنوا في بلاد غريبة عنهم في الجغرافيا والمناخ والعادات والتقاليد وفي كل شيء .

ومع كل سلبيات الحكم وأخطائه الواضحة لكل بصير، وسبحان من حباه الله بعصمته ؛ لم يتنازل في يوم ما ليعترف بخطأ أو جرم أو تقديم اعتذار، إلا ما ندر بإصدار "رد اعتبار" ولا أعلم هل أن ذلك سيرد حياة قائد أو أحد شجعان الجيش العراقي الباسل بعد أن فقدها ظلماً وعدواناً ، وهل سيعيد مظلته على عائلته وأطفاله . واستمع معي أيها القارئ ما جاء

به الحكم بعد الضغط الإقليمي والدولي الشديدين ، وبعد حصار مرير لسنوات وتهديد حقيقي بغزو جديد للعراق : " نعتذر إلى الله من أي فعل يبغضه سبحانه، إن كان وقع في الماضي مما لا نعرف به ويحسب على مسؤوليتنا ، ونعتذر لكم على هذا الأساس أيضاً". وما رأيك وقد أضيفت صفة أخرى للقيادة ، فليس هناك كبيرة أو صغيرة ، وليس له علم بها !! .

ولا مناص للعراقي إلا أن يشكر الظروف التي جعلته معروفاً في كل بلاد العالم من أدناها إلى أقصاها ناهيك عن مئات الآلاف من العراقيين الذين اتخذوا من الأردن وسوريا ومصر وإيران ودول الخليج وغيرها من الدول العربية ملجأ لهم وملاذاً ، وصاحب هذه الغربة أو الهجرة القسرية تفتيت للعائلة العراقية التي تتميز بتكاتفها وتماسكها الذي يميز المجتمع العراقي . فقد تجد أحد أفراد العائلة في كندا والآخر في نيوزيلندا والباقي في الأردن أو سوريا ، ومن العراقيين من طلب اللجوء إلى دول العالم المختلفة لسبب سياسي أو إنساني أو عرقي أو مذهبي وهذا ما لا يشرف أي نظام حاكم ؛ كما لا يفتخر أي عراقي بأن يتنازل عن جوازه ليحمل أي جواز آخر مهما كان لونه أو مصدره . وقد بلغ عدد الجوازات في عائلة واحدة إلى 14 بلداً.

يقدر عدد المهجرين والمهاجرين والمغتربين بأربعة ملايين أي بنسبة واحد لكل خمسة وإذا ما أسقطنا الأطفال والمتقدمين في السن وربات البيوت ؛ فسيكون هذا العدد واحد من بين كل اثنين ونصف أو ثلاثة من العراقيين، وشريحة لا بأس بها من هؤلاء هم من زبدة المجتمع العراقي سواء في تحصيلهم العلمي أو الكفاءة أو الثقافة أو التفكير وفي مختلف الاختصاصات والمهن والإنتاجيات ، ومنهم من احتل مناصب مرموقة

في بلدان المهجر الجديد وليس من المستبعد أو الغريب أن نسمع في يوم من الأيام في المستقبل البعيد ان أحد أبناء أو أحفاد هؤلاء وصل أو احتل منصبــاً مهما في المجالس النيابية أو أصبحوا رؤساء لهذه البلدان التــي هجروا إليها وانهم من أصل عراقي وهذه ستكون مكرمة شــكر للنظــام الذي هجرهم ! .

لم تكن هذه الملايين من الجواسيس أو الخونة ولا مــن التبعيــة أو أولاد حرام، لقد اخرج الجيش العراقي بالشكل الذي يعرفه الجميع بعيداً عن أي انسحاب تكتيكي أو غيره ، ومن المضحك المبكي أن يســمع العراقيــون بأنباء وهتافات انتصرنا انتصرنا .(بينما أحد المواطنين يبكي وينتحب ، سئل لماذا ؟ قال: أبكي على الأمريكان وما ستكون عليه حالهم إذا كنــا نحن في هذه الحال ومع ذلك نعتبر أنفسنا منتصرين) . وللحق أن العراق قابل قوى أكثر من ثلاثين دولة منفرداً ولا يسع المحلــل إلا أن يصــف الرئيس العراقي بالغباء نظراً للاستراتيجية والعناد اللتين قابل بهما هــذه الجيوش المتسلحة بتقنية لا يمكن أن يتصورها هو أو يعرف مداخلها .

خضع العراق إلى حصار لم يشهد التاريخ شبيهاً له مــن البــر والبحــر والجو وفرضت عليه تعويضات جسيمة قد يمتد سدادها إلــى عشــرات السنين وستطال آثارها الأجيال القادمة ، وهي تعويضــات تــدفع لكــل الجنسيات والأجناس ومن ضمنهم إسرائيل وكثير من الذين لا يســتحقون تعويضاً وهم من المحتالين والمرتزقة بالإضافة إلى الرواتــب الضــخمة لكل من دخل في هذه التركيبة لسنوات طوال . لقد هدمت البنية الأساسية والتحتية في العراق كالماء والكهرباء والخدمات الصحية والأمنية وعادت إلى عصور ما قبل التاريخ ، وكانت التنازلات مستمرة بعــد الانكســار الشائن ولم تتوقف عند خيمة صفوان بل تعدتها إلى درجات غير مسبوقة

أو مسموعة من حق دخول المفتشين إلى أي مؤسسة وبيت والمؤسسات الجامعية وحتى القصور الرئاسية وغرف نوم القائد الكبير وأخيراً حتى المساجد والجوامع ، وتكررت الرسائل العراقية إلى الجانب الأميركي لكن الأمريكان رفضوها وأنكرها الجانب العراقي عند نشرها .

أدى ذلك إلى تقليص وانكماش الإنسان العراقي وإلى إهانته والتقليل من شأنه في المؤتمرات وفي دوائر السفر والمطارات باستثناء بعض الدول العربية ، وهبطت الحياة المعيشية والاقتصادية إلى مستويات متدنية وارتفع سعر الدولار إلى ما يزيد على ثلاثة آلاف دينار للدولار الواحد بعد أن كان الدينار الواحد يعادل 3,37 دولاراً وانخفضت الخدمات الصحية وشحت الأدوية إلى درجة مخيفة وانتشرت الأوبئة وارتفعت نسبة الوفيات (نصف مليون طفل سنوياً) بسبب الحصار الجائر والسياسة المحلية ، وأكدت صحة هذه الأرقام وتردي المستوى الصحي لأطفال العراق منظمات الصحة العالمية والمؤسسات الأنسانية الدولية وجامعات محترمة ، وقد طالت الأمراض كافة شرائح المجتمع العراقي وزادت نسبة وأعداد المرضى بشكل مخيف خصوصاً ارتفاع ضغط الدم والجلطات القلبية والدماغية والذبحات الصدرية والسكر والأمراض النفسية والعصبية تكاثرت بشكل رهيب ، وتشير الإحصاءات الأخرى إلى تكاثر الأمراض الخبيثة والسرطانية بشكل يلفت النظر وقد يكون السبب في ذلك استخدام الأسلحة الكيماوية واليورانيوم المنضب . ومن الغريب تميز الخدمات الصحية وانخفاض نسبة وفيات الأطفال في الشمال الكردستاني . واستمر العراق في حالة من التدهور الاقتصادي بسبب الحروب المدمرة حتى وصل إلى حالة الإفلاس ، فقد استلم صدام الحكم وكان في خزينة العراق وقتها ما يزيد على 39 مليار من الدولارات وهو

الآن مدين بما يقدر بثلاثمائة وأربعة وتسعون ملياراً من الدولارات بـين ديون وتعويضات ويخبرنا الاقتصاديون ان سداد هذه الديون يسـتغرق عقوداً من السنين وقد تصل إلى قرن كامل إذا لم تعالج بطرق أخرى .

تصاحب كل هذا ظواهر غريبة هي اختفاء الطبقـة الموسـرة سـابقاً ، وتقلص الطبقة الوسطى وهي شريحة اجتماعية كبيرة عددياً إضافة إلـى نمو فئة جديدة من المليارديرات ، فقد صرح أحد أقطاب الحكم حين ترك العراق (الفريق حسين كامل) بأنه هـرب وسـرق مليـارات مـن الدولارات ، فهل أموال الجمهورية العراقية وميزانيتها بئر مفتوحة لكـل من أدلى بدلوه فيها ليخرج بالغنائم ، ومن يملك المفتاح السري لهذا الكنز ؟! .

وتفشت الرشوة بكل دوائر الدولة وعلى كل المستويات بحيث بات مـن المستحيل أن تنتهي أي معاملة أو ورقة بدون ان تقدم رشوة للمسؤول مع إن هذا النظام نفسه وفي أوائل أيامه طبق حكم الإعدام على المرتشـين ولو بكمية قليلة من المال .

لقد مزق العراق إلى قطع حيث انفصل الشمال وقطع علاقته مع الحكومة المركزية ولم تبق للسلطة العراقية تلك القبضة الحديدية على الجنـوب ، ودخول وخروج الجيش التركي إلى شمال العراق أصبح ممارسة يومية ، وتنتهك أجواء العراق يومياً من الشمال والجنوب بدون أي تفويض دولي ، وجفت أو كادت مياه النهرين الخالدين دجلة والفرات بدون إعـارة أي اهتمام للقوانين الدولية .

قد يصاب المتتبع لهذه الأحداث بالدوار ويتوه في كيفية الجمع والتقريـب بين من يصف القيادة بالذكاء ومن يصفها بالغبـاء ، ولإيضـاح هـذا الغموض – على الأقل من وجهة نظري – لا بد من تحليـل صـفات

أخرى لهذه الشخصية ومنها المغامرة فمن المؤسف أنها لم تتقن اللعب بأوراق اللعبة كما أثبتت الأحداث ولكنها بارعة في خلط تلك الأوراق . وتصاحب المغامرة صفة التحدي التي وصف بها الرئيس من سنوات الشباب واستمرت طيلة هذه الأعوام ولم تنضج وتتحول رغم بلوغه الستين من العمر. وفي رأيي المتواضع أن التناقض غير موجود لأن الذكاء لم يكن شمولياً وإنما كان محدداً من زاوية خاصة فقد طغى مركب الشعور بالعظمة أو (بسمارك العرب) والنرجسية المتضخمة وسحر حب السلطة والكرسي وتضافرت مع الاستماتة والاستقتال للتمسك بالسلطة والتربع على هذا العرش لتظهر شخصية صدام على هذا النحو ، ناهيك عن استعداده لفعل أي شيء (سجن ، تعذيب ، تصفيات ، تسفير ، مصادرات ، توزيع ثروات لمن تشاء، إنشاء القصور الرئاسية الخيالية) للمحافظة على سلطته .

ولم يتطرق أحد حسب علمي لقدرة هذه الشخصية على التمثيل وادعاء ما ليس في داخلها حيث شاهده الكثيرون وهو يذرف الدموع بعد محاكمة العشرات من أعضاء القيادة المبرزين بعد استلامه السلطة وعند استدعائهم ليواجهوا حكم الإعدام بعد المحاكمة الوحيدة التي لُقّن المخبر الوحيد بها بما يجب أن يكتب ويقول لضمان حياته ، غير أنهم لم يوفوا بوعدهم وألحقوه بالباقي ممن قُتلوا بأيدي أركان الحزب المذكور . لقد تضخمت هذه العقد أكثر فأكثر مع طول فترة حكمه لتصبح لمدى الحياة من دون انتخابات وبنسبة تأييد 100% .

معادلة شديدة التعقيد : طفولة خشنة ، وحرمان ، طموح كبير، تفتقر إلى خلفية أو أساس، حب البقاء المجسم ، وجسارة ملحوظة ، نرجسية لا تحدها حدود ، ومركب عظمة هرمي ، سادية لا تضاهى ، وتحد منقطع

النظير، إيمان مطلق بعصمته من أي خطأ ، وثقة متناهية ، قناعة كاملة بعلمه بكل العلوم "الإنسانية والعلمية والتكنولوجية والعسكرية"، وعمق معرفة كاملة بالمجتمع العراقي وكيفية التعامل معه ، أدت إلى حصيلة ما نراه اليوم في البلد العزيز والتي تعدت آثارها إلى بلدان مجاورة .

حربان مدمرتان بالكامل أكلتا الأخضر واليابس ، مجتمع مفتت وشعب مشرد وجائع ، بلد ممزق ومجزأ ولا يتمتع بسيادة على أرضه أو أجوائه ، محاصر بحصار لم يسبق له مثيل لمدة اثني عشر عاماً ، وفئات معارضة من الداخل والخارج وعدم قبول المنطقة الإقليمية لهذه القيادة وعدم تعامل المجتمع الدولي معها بعد أن دعمها وسخرها لتحقيق أهدافه ! ألا تكفي هذه المعطيات كلها لكل ذي ضمير وغيرة ووجدان وإحساس بالمسؤولية لكي يتنحى جانبا ؟ ولِمَ لمْ تحرك الحوادث الأخيرة النظر الثاقب للسيد الرئيس حيث جُيِّشت الجيوش وحركت الآلة العسكرية الجبارة لأمريكا وإنجلترا ترافقها الحملة الكاذبة والمضللة ، وقلب الحقائق الواضح وإخفاق قوى كبيرة في وقف هذا التوجه ، ألم تكن هذه المؤشرات كافية للدعوة إلى مؤتمر عام وشامل لكل العراقيين وإجراء انتخابات نزيهة تحت إشراف الأمم المتحدة وبحضور كبير لشخصيات محايدة لتأتي بحكومة مقبولة من العراقيين والعالم ولتجنب العراق والمنطقة كارثة كبرى وتضمن لدول المنطقة موقعا افضل ؟ وهل عقر العراق العظيم من رجال من أهل العلم والمعرفة والمحاسبة الذاتية ومن يرجعون إلى دستور ومجلس شورى وحكم ديموقراطي تعددي وان التاريخ سوف لن يجافي الحقيقة بان هناك من سيرفع الراية إذا أزيح هذا الكابوس وفي المستقبل شعاع وبارقة أمل واسأله عز وجل أن يكون ذلك على يد أبنائه وليس الغد لناظره ببعيد . كان الله في عون المنقذ لبناء ما

خرب وهدم . ولعلّ هذه المواقف المتضاربة والمتناقضة ، هـــي التــي ساقته الى نهايته وأولاده وعائلته والبلد بكامله الى هــذه النهايـــة . وأن رفضه بعناد وعجرفة لجميع الطروحات والحلــول المقدمـــة مـــن دولٍ ورؤساء ومنظمات دولية بما فيها الأمم المتحدة يفسّر ما يمكـــن وصـــفه بالبلادة والغباء المجسم .

وما أزال أعتقد بذكائه الفطري البدوي الذي عرف الجوانب الشخصـــية والنفسية لمحيطه ، وأن جسارته وحبه للعرش والسيطرة له ولمنتســـبيه ، والذي لم يحلم به أبداً كانت الكفة الراجحة في تصرفاته ونهايته ونهايـــة العراق ، ولا يخلو التاريخ من أمثال كهذه .

لقد كان العراقي معطاء بنّاء عبر عصور التاريخ ، ونهض شامخاً مـــن كبوات ومصائب وحروب مرت به من المغول إلى الرومـــان والفـــرس والأتراك، وسيبقى ويبني بقدرات أبنائه وبما حبـــاه الله مـــن إمكانيـــات وثروات ومقدرات ، وعسى أن يكون العراقيون قد أخذوا درساً مما يزيد على ثمانية عقود مضت من الانقلابات والثورات والشعارات ولا أعتقـــد أيدلوجية أي اتجاه سياسي تشجع التعذيب والسادية ، وكفانا مـــا عشـــناه ورأيناه من مصادرة الحقوق والحريات التعبيرية حيث غابت أي حريـــة للفرد أو للعائلة أو للجماعة أو للصحافة ولم يلمـــس المجتمـــع العراقـــي اشتراكية إلا كشعار. كل ما حدث هو تهميش للطبقة المتوسطة وإثـــراء فاحش وغير مشروع لطبقة جديدة ، ولم تحقق الدول العربية وحدتها بل لم تحافظ على كياناتها السابقة ونأمل مخلصين أن ينتبه الجميع إلـــى أن خلاص المنطقة لن يتحقق بدون حكم ديموقراطي تعددي حر ، ولن يكون هذا صعباً حتى ولو جاء التغيير متأخراً .

قد يكون في فلسفة الحزب – البعث – وعقيدته وبرتوكولاتـه مثاليـات تصبو إليها الشعوب والتي افتقدت تطبيقاته ، أهي القيـادة أم انحـراف التطبيق ؟ كما أن الجماهير في الدول الأخرى لم تشـاهد تطبيقـاً لقـيم المثالية "وحدة ، حرية ، اشتراكية" التي يصبو إليها الجميع .

والشعارات كلها على الإطلاق براقة ومقبولة وقابلة للتسويق كأي بضاعة أخرى ، وليس لدي اعتراض أو تعليق عليها ، ولكن أهميتها تمكن فـي مدى الأداء والتطبيق خصوصاً إذا ما أعطيت الوقت الكافي .

مجزرة خان النُص والدكتور عزّت مصطفى " الزيارة الشعبانية "

حدث في منتصف السبعينات حادث مشهور عُرف بإسم " خان الـنص " وهي منطقة تقع في منتصف الطريق بين النجف وكربلاء، حيث تجرأت مجموعة من أبناء الطائفة الشيعية للسير، كما جرى العُرف ، مشياً على الأقدام بين النجف وكربلاء بمناسبة زيارة منتصف شعبان . وبما أن حكم البعث أصدر تحريما لمثل هذه الشعائر الدينية ، فقـد هاجمـت قـوات الشرطة والأمن المسيرة وقتلت عدداً منهم واعتقلت عدداً أكبر لتحـيلهم الى محكمة خاصة . وقد شُكلت بقرار مجلس قيادة الثورة محكمة ثـورة استثنائية برئاسة طه الجزراوي وعضوية كـل مـن الـدكتور عـزّت مصطفى ، وزير الصحة آنذاك والرجل الثالث في السـلطة والتـأثير ، والسيد فليح حسن جاسم وزير الصناعة . وأُريد لأعضاء المحكمة مجرد التوقيع على قرار إعدام ما يزيد على أربعين شخصاً وليس محـاكمتهم ، حيث أن عدداً من هؤلاء قُتل خلال الهجوم على المسيرة والقسم الآخـر مات نتيجة التعذيب . واتصف التعذيب ببشاعة وهمجية من الصعب على كاتب أن يصفها وكان التعذيب على أشده وأصـنافه المختلفـه وشـملت مناطق واسعة وقد رفض الوزيران التوقيع على قرار المحكمة الذي أُعد

سلفاً . وتم بعد ذلك عزل الدكتور عزت وتعيينه كطبيب فـــي مستشـــفى مدينة الشرقاط ، وعُين فليح جاسم معلماً في احدى المدارس الأبتدائيـــة . والذي قتل بعدئذ عندما كان راكباً دراجته الهوائية أثناء تنقله من البيـــت والمدرسة .

كان الزميل عزت مصطفى أحد مرضاي لمدة طويلة وبخلفية مرضـــية حقيقية ، تربطني به علاقة اجتماعية ومهنية ، وكان حلقة الوصل بينـــي وبين أساطين الحكم . زارني الدكتور عزّت من الشرقاط الى مدينة الطب ، أشركت معي الزميل الدكتور ابراهيم الحيالي وكانت أسهمه مع السلطة ما تزال جيدة . أعطينا القرار العدل والطبي الأمـــين بحقـــه ناصـــحين بوجوب تواجده بالقرب من مركز طبي متقدم للمراقبة والعلاج ، علمـــت بعدئذ أن التقرير لم يلق الرضا من المسؤولين . ولكنه قبل ونفذ في حين أنهم رفضوا تقريراً سابق كتب من قبل أحد الزملاء .

ولعل من نافلة القول أن الدكتور عزت مصطفى كان من أوائل مؤسسي حزب البعث ومعروف بصلاته القوية مع أقطاب حزب البعث في سوريا ، وأنه كان المموّل الرئيسي للحزب حيث قدّم مساعدات ماليـــة كبيـــرة للحزب في نشأته الأولى ، وكان يجمع التبرعات من زملائـــه الأطبـــاء وغيرهم لأسناد وديمومة الحزب . وقد اســـتعمل مستشـــفاه (الـــرازي) كمركز سري مريح لأجتماعات مسؤولي وكوادر حزب البعـــث ، فهـــل يستحق زميل ومؤسس هذه المعاملة ؟ .

الفصل السادس

الأحداث الجسام

أخذ تعاظم مركز صدام بالنمو المضطرد بالسلطه وبعكسه استمر مركز الرئيس البكر بالانكماش . سرت بأوساط القيادة همسات بالتبديل ولو اني على علم بأن الرئيس البكر رحمه الله كان زاهداً بالرئاسة في أوائل السبعينيات والتي ظهرت بشكل استقالة على بعض مسوداته وأوراقه . دعي إلى اجتماع بالقيادة وقيل أن ورقة فيها كتابة قد مررت بين أعضاء القيادة ووصلت الى أحدهم وقيل أنه العامري والذي أوصلها بدوره الى النائب صدام حسين وأسرها هذا لنفسه .

استمرت الطبخة إلى أن نضجت واوصلت المعلومات الى الرئيس السيد البكر بأن الشباب يريدون التغيير ، وعندما سأل عن رغباته وطلباته قال : أريد الاحتفاظ بفريقي الطبي فقط .

ساعدت الظروف الصحية والأمراض وما مر عليه من وضع أبعد من أن يكون مريحاً لفقدان زوجته وشقيقته وصهره زوج بناته وأحبهم لديه ومسيرة نجله الحبيب الأصغر "محمد" والمتعثرة مع السيد صدام حسين والتي انتهت بوفاته في حادث سيارة في الطريق الخارجي الى تكريت مع عقيلته كريمة ابنة خاله المرحوم كريم الندى .

والتي لم يجر تحقيق جنائي حولها . كان سائق نجله في المقعد الخلفي للسيارة ويسوقها نجل البكر بنفسه ، اكتفى الوالد بإرسال نسيبه الآخر وبصحبة ضابط من رفاقه لزيارة سائق السيارة والذي كان رهن التوقيف

لشم أي رائحة اجرامية أو تداخل في الحادث والذي نفاه السائق وقد أهداه الرئيس البكر كمية من المال وأغلق الموضوع .

والمشكلة الأخرى هي الخطوات المتعثرة لنجله الأكبر "هيثم" وطلاقه من ابنة الحاج خير الله طلفاح .

التنازل عن العرش

كل هذه الامور يقابلها دهاء وذكاء وطموح غير محدود لنائبه مما حـدا بالسيد البكر بالظهور على شاشة التلفزيون العراقيـة بتـاريخ 16-07-1979 وبجنبه الحاكم الجديد يقرأ شيئاً وكأنه قد كتب له . أصبت بدهشة كبيرة وليست بعيدة عن المتوقع وأكاد أقرأ كل جملة فيها بعمق وبحقيقـة ما أعرف عنهما وبإنشائها المكتوب من كاتب مقتدر .

هل انتهت المسرحية ؟ - المؤامرة

بعد خمسة أسابيع من التنازل وبتاريخ 22 تموز دعي الى اجتماع لمجلس قيادة الثورة وللكادر المتقدم للحزب وأعضاؤه المبرزين في قاعدة الخلـد ليعلن الخبر المهم والخيانة العظمى من قسم من قيادة الحـزب المتقـدم واضفاء لقب "الطابور الخامس" بوجود مؤامرة مدبره مع النظام السوري لتغيير النظام في العراق تخللها تساقط دموع الـرئيس الجديـد وابتـدأ المنادي باستدعاء الأعضاء القياديين وعلى سبيل المثال لا الحصر السيد عدنان الحمداني ومحمد عايش وغانم عبد الجليل ومحمد محجوب الـى آخر القائمة وعندما ينطق بالإسم يؤشر الى مرافقيه خذوه حتـى يخـرج خارج القاعة ولم يعر أحد للرد على صراخ بعض المتهمين ببراءته .

نطق بالاتهام السيد محي عبد الحسين والذي يلقـب "بمحـي المشـهدي" والذي يحمل لقب رئيس ديوان رئاسة الجمهورية وهذا أحـد مرضـائي أعرف بساطته وعسى أن لا اكون مخطئاً ان قلت بسذاجته . جـاء فـي

مذكرة الاتهام ما يذهل من الأقوال وقيل أنها كتبت له مقابل التنازل عن المصير الذي سيلاقي الآخرين كما تناقلـه بعـض الأعضـاء وسـجل الاجتماع والاعترافات واعترافات الأستاذ محي على شرائط فيديو وزعت على أعضاء الحزب وعلى الشباب الذين لم يقرروا مصيرهم الحزبي لحد ذلك الوقت والغاية هي حرب نفسية وعلى غيرهم مـن أفـراد الشـعب العراقي بالرغم من ان الاجتماع كان متلفزاً وليس بسري .

حكم على 22 عضواً قيادياً بالاعدام رمياً بالرصاص وبضـمنهم السـيد محي عبد الحسين الذي قرأ لائحة الاتهام في 01-08-1979 .

نفذ الأمر في ساحة خاصة وجرى الاعدام من قبل أعضاء حزب البعـث أنفسهم مجتمعين لإعطاء الشعب العراقي انطباع صفة الاجمـاع علـى إجرامهم . لم يرد بعدئذ ما يثبت هذه التهم بوثائق رصينة بعيدة عن الشك والشبهة .

وأصل الموضوع قد يرجع الى زمن سابق حيث جرت محاولات لوحـدة بين سوريا والعراق بوجود البكر وحافظ الأسد علـى رئاسـة البلـدين ووصلت الى أدوار متقدمه . دقت هذه الخطوة جرس الانذار عند النائب صدام حسين بأن هذه العملية ستخفض مركزه الى حد بعيد وهو الثالـث على أحسن تقدير. المهم ان قرار الوحدة سبق موضوع المؤامرة بـزمن غير قصير وقيل أن للأصبع الأميركي دخله ومن الطبيعي أن من صالح اسرائيل وهدفها هو فسخ الوحدة ومعارضتها وهذه قد تكون بديهية .

وعند وصول قرار تنازل البكر عن السلطة حدث وأن خلقت أو تكونـت فئتان أحدهما مؤازرة لصدام وخلافته والأخرى تريد مناقشـة الأمـور بطريقة ديموقراطية وبانتخابات حرة سيما وأن الهدف الأول من شعارات

حزب البعث هي **الوحدة والحرية والاشتراكية** ومن هذه الجماعة محمد عايش وجماعاته الذين اعدموا .

الرجات الكثيرة والزلزال

إن ما لا ينكر ان كان هناك انجازات ملحوظه ولسنين طويلة منها تأميم النفط والتحسن الاقتصادي والخدمات كالصحة والماء والكهرباء وأهمها التعليم ومحاربة الأمية .

ولكن استمرت ادارة الدولة كيفية وشخصية وقرار الأوحد ولم يكن معيار الكفاءة أساساً للتعينات والمناصب .

القوانين تشرع بإجتهاد ورغبة وحاجة فردية ومنها انشاء المحاكم الخاصة وقد قيل "ان القانون هو ما نلهو به مساء ونطبقه في الصباح" .

ومن وحي العنوان ومن الاسطر السابقه سأبدأ بإسراد بعض الحقائق الناصعة والموثقة .

حسين كامل

أشهر شخصيات الحكم الصدامي وهو ابن عم الرئيس صدام من عائلة المجيد ومن مواليد 1954 . لم يتعدى تحصيله الابتدائية في سنة 1966 . ألحقه صدام في الحماية الخاصة له سنة 1976 وأدخله بنفس تلك السنة الى الدورة الخاصة لضباط الاحتياط برتبة ملازم . رفع على رتبة ملازم أول في سنة 1981 وإلى رتبة نقيب سنة 1983 .

جرى عقد قرانه على الآنسة رغد كبيرة كريمات السيد صدام حسين وهذه كانت أول قنبلة كبيرة تفجر في بيت الحاكم حيث اعترض بشدة الأخوان الثلاثة غير الأشقاء لصدام برزان و سبعاوي و وطبان أولاد ابراهيم الحسن لهذا القران لأنه يخالف التقاليد العشائرية ولأن أولادهم

وحتى أولاد ادهام شقيق صدام المتوفى أحق من شخص درجة قرابته العائلية بعيدة وهي من الدرجة الثالثة ! .

استمرت الأمور متوترة وجرد برزان من سلطاته وصلاحياته وأبعد الى جنيف كسفير لسنوات أما النجم الصاعد والساطع "حسين كامل" فقد تقلب الى مناصب تصاعدية رفع الى جهاز الأمن الخاص برئاسة الحرس الجمهوري و وزيراً للصناعة في سنة 1987 فوزيراً للدفاع في سنة 1990 ثم كلف بوزارة التصنيع العسكري ذات الميزانية المليارية وذات الأسرار الرهيبة ومنها الطاقة الذرية وأسلحة الدمار الشامل . واستمر بالقفز في السلم العسكري حتى وصوله الى فريق أول ركن .



حسين كامل

ترصنت العلاقة والثقة به من قبل الرئيس وتزوج شقيقه "صدام كامل" من البنت الثانية للرئيس صدام "رنا" وكان هذا برتبة مقـدم ووصـل الـى منصب رئاسة الحرس الجمهوري ومما يذكر ان الأخوين كانا الوحيدين اللذين يجوز لهما الدخول الى الرئيس صدام بأسلحتهم .

اجتياح الكويت

وكنتيجة لما سبق بدأ الجانب العراقي بينه وبين الكويت والسعودية كانت الأخيرة جولة شديدة ملاسنة بين السيد عزت الدوري نائب الرئيس وولي عهد رئيس الدوله الكويتي الشيخ سعد العبداالله التي تعدت كل حدود اللياقة والأخلاق النقاش والجدال ووصلت الى درجة متدنية ترك الوفد العراقي غاضباً السعودية بعد ما أخبر الرئيس صدام بما جرى .

استمرت درجة الحرارة بين الكويت والعراق بالتصاعد خصوصـاً بعـد زيادة الضغط من الكويت وانخفاض سعر النفط العالمي وانخفاض سـعر العملة العراقية بشكل كبير .

استدعى الرئيس صدام سفيرة أمريكا في بغداد السيدة جلاسبي بالملابسات بين الطرفين واستشفاف رأي أميركا بالموضوع أخبرته الأخيرة بحـديث مغلف مشيرة الى أن ليس من أهداف أميركا التدخل بخلافات حدودية بين جارين وقد اختفت هذه الديبلوماسية من المسرح السياسي بعدئذ !؟ .

وبتاريخ 2 آب 1990 تحرك الجيش العراقي الى الكويت ومـا هـي الا ساعات حتى أكمل السيطرة عليها بالكامل وانتقلت سلطة الكويت الحاكمة الى المملكة العربية السعودية ونزح قسم غير قليل من الكـويتيين الـى الامارات العربية المتحدة .

أعلن العراق بعدئذ وحدة الكويت معها بتاريخ 28-08-1990 وصـــدر بيان معتبراً الكويت هي المحافظة التاسعة عشر للعراق وسميت "الكاظمة"
.

تبع هذا الاجتياح فوضى عارمة بتركيب الكويت من اعتـــداءات كثيـــرة كإعتقالات واستيلاء على أموال وغيرها وضجة اقليمية وعالميـــة ضـــد العراق ولم يبق بجانب العراق الا سلطة فلسطين والاردن بدرجة خفيفة . اشتدت الحملة العالمية برئاسة الولايات المتحدة مؤججة من قبل الســـيدة الحديدية مارغريت تاتشر رئيســـة وزراء انجلتـــرا آنـــذاك . اســـتمرت المحادثات والوساطات بين أكبر رؤساء العالم والدول العربية والأمـــين العام للأمم المتحدة مع الرئيس صدام والتي فشلت جميعها .
حشدت أميركا جيوش أكثر من 30 دولة ومنها جيـــوش عربيـــة لغـــزو العراق وقد أنذر الوزير الأمريكي جيمس بيكر الوزير العراقي طـــارق عزيز بأن أمريكا سترجع العراق الى العصر الحجري ان لم تمتثل لقرار الانسحاب .

غزو العراق وإنكساره

سبق هذا الغزو قصف متواصل ليل نهار على العاصمة بغداد وعلى كل مراكز القوة والجيش .

ومن الغريب وليس من غير المقبول من الرئاسة ان قيادة الجيش وكبـــار ضباط الأركان لم تتدارس الموضوع بعدة جوانبه مع الرئيس القائد ، وقد عانت قطاعات الجيش العراقي الأمرين من الجوع والعطـــش والتنســـيق والمواصلات وحتى الاسناد العسكري والمعيشي وتفتت القيادة بالكامـــل وبدأو بالانسحاب المذل بآلياتهم وتبعتهم الطائرات الامريكية الى داخـــل العراق وفرقتهم شذر مذر وأحرقتهم داخل مدرعاتهم ودباباتهم وآليـــاتهم

وبقت هذه المخلفات على الطريق شاهداً على ما لاقاه الجيش العراقي مما حدا بوزير الدفاع الأمريكي كولن باول بالتوقف عن قصف القطاعـات العراقية بعد مخاطبة الرئيس الأمريكي بـوش الأب بضـرورة ايقـاف القصف حيث ان القوات العراقية منسحبة وهي بالواقع بوضع الاستسلام وايقاف القصف واجب أدبي .

والطريق طويل وشاق وحزين الى بغداد وبمرور هذا الجـيش الباسـل والمنكسر بشكل واضح ومهين والرئيس وبطانته يصـرخون "انتصـرنا انتصرنا" .

ولا بد لي أن أذكر حالة رجل من عامة الشعب العراقي وجد باكياً وسأل عن ما يبكيه قال أبكي على أميركا وأتساءل ما قد حدث لها اذا كان هذا ما حدث لنا ونحن الجيش المنتصر !؟ .

استمرت هذه الحرب أو حرب الخليج الى ستة أسابيع لم يتحمل الشـعب العراقي الأبي هذه النكسة المهينة والخروج منها بدون الجـزء المقتطـع ظلماً كما يعتقد الكثيرون والخسارة التي لا تحد بحدود وقد قيل ان عـدد الضحايا يتراوح بين 300 الف و 500 الف وقد دفن الكثير منهم أحيـاء من جراء القصف الشديد . وقد قيل ان السيد قصي النجل الثاني للرئيس هو من كان في قلب القيادة لهذه العملية .

الانتفاضة زلزلة الجنوب العراقي وآثار حرب العراق

لم يبق الشعب العراقي ساخطاً فقط ولكن تسارع على ثورة عارمة شعبية عفوية ذاتية ومفاجئة بدون قيادة أو تخطيط وليس لها خيوط وارشـادات أجنبية الا أن بعض الثوار والمتظاهرين حملوا صور الامام الخميني وهو زعيم الدين المؤثر في ذلك الزمن وفي تلك المنطقة وهو من سحق نظام الشاه الديكتاتوري ، لم يكن لانتفاضة الجنوب ارتبـاط مسـبق بـإيران

وامتدت كإمتداد الهشيم في الحطب من محافظة الى أخرى حتى استولت الجماهير على أربعة عشر محافظة من مجموع ثمانية عشر محافظة .
وهنا يأتي دور صدام ثانية بقوة ليعطي أكبر وأقوى الصلاحيات لصهره حسين كامل المجيد ولعلي حسين المجيد ولنجله قصي وكانت قوة الحرس الجمهوري باقية بكاملها وما عملوه أكثر من وحشي ولا يجد الكاتب من كلمات لوصف التعذيب والتقتيل الجماعي للشباب ومحو عائلات بكاملها وتدنيس محلات مقدسة واحراق مكتبات عظيمة وقديمة في كربلاء المقدسة ومقابر جماعية لمئات من المواطنين وبشكل عشوائي واغتصابات وبلغ الأمر بحسين كامل أن رشق القبة الحسينية الشريفة والتي لم يجرؤ أحد على مسها والتطاول عليها عبر الأجيال وهي رمز شديد القدسية ليس للشيعة فقط بل للعالم الاسلامي مخاطباً الجماهير " أنا حسين وهذا إمامكم الحسين فلينهض لمساعدتكم " .
ووجد بعد سقوط النظام وبشهادة عيون كما جاء في كتاب دكتور علي علاوي "احتلال العراق" أن في المحاويل وحدها كانت الحفر مهيأة وتأتي اللوريات يومياً من 7 آذار 1991 لغاية 6 نيسان 1991 وحمولة كل واحدة من السيارات حوالي 150 شخص أكثرهم بعمر الشباب ورميهم أحياء في هذه الحفر واطلاق النار عليهم وهذه وحدها كانت نهاية لمئات الآلاف .
كان دور أميركا بكل هذه بعيداً عن الاستقامة والنظافة ومتناقضاً ففي الوقت الذي يثير الرئيس بوش الأب الشعب العراقي على شاشات الفضائيات كلها وبصوت هادر ومتكرر يهيج الشعب العراقي بأخذ الامور بأيديهم لإنهاء نظام صدام وهو سبيلهم للخلاص وبالوقت ذاته بدأ جيشهم في المنطقة بنزع السلاح من الثوار وتوجيههم الى صحاري

المملكة العربية السعودية كلاجئين ولم يقف عند هذا الحد بل أعطى الصلاحية باستعمال الطيارات السمتية "الهيلوكوبتر" بملاحقة العراقيين الهاربين وتصفيتهم وكان الناجون بحدود 70.000 . انتهي أكثرهم الى معتقلات في "رفحه" ومكانات أخرى في الصحراء وهي أقرب الى بنية سجون من ملاجئ والتي عانوا فيها الكثير انتقل قسم منهم بمرور السنين الى أوطان وبلاد غريبة في العادات والمناخ واللغة وبعيدة كلاجئين بمساعدة الهيئات العالمية للإغاثة واللاجئين.

وقيل في سبب التناقض الكبير من قبل رئيس أكبر دولة في العالم وبين سلطاته الغازية للعراق ومن بعض دول الجوار رضى الله عنهم بأن انتفاضة الجنوب لا تخلو من أصابع للامام الخميني حيث حمل بعض المتظاهرين صوره عفوياً .

الأنفال

تزامن مع ثورة الجنوب ثورة الأكراد بالشمال وبضمنهم الشبك والتركمان والآشوريين واليزديين وبكل أطيافهم قابلها الجيش بوحشية مماثلة بقصف مدفعي وجوي والذي أدى برحيل جماعي الى كهوف وجبال الشمال وتركيا تاركين وراءهم بيوتهم وأثاثهم ويقدر ما قتل وأعدم والقبور الجماعية بمئات الآلاف توجتها مجزرة "حلبجة" بقصفها بالمواد الكيماوية بغاز الخردل والأعصاب تسبب بما لا يقل عن خمسة الآف ضحية بين طفل وعجوز في 16 اذار 1988 وأعتبر هذا اليوم يوم احتفال وحزن وتجمع في كل سنة.

قدر ما سقط على العراق من قنابل شديدة الانفجار وصواريخ وطوربيدات موجهه من البحر "توماهوك" أو ما شابه بأكثر مما سقط على أوروبا في الحرب العالمية الثانية وأكثر شدة من قنبلتي هيروشيما

وناجازاكي الذريتين لم يوفر الحلفاء "الأمريكان" أي سلاح الا واستعملوه وقد استعملوا القنابل التي تزن نصف الطن لتدمير مخبـأ بغـداد "ملجـأ العامرية" المحصن والذي أدى الى محرقة جماعية لكل من كان فيه ومن لجأ اليه من الأطفال والنساء والعوائل وكبار السن هرباً مـن القصـف المستمر على بغداد بأجمعها جريمة نادرة ووحشية رهيبة وممنوعة فـي تاريخ الحروب أدت الى رجة اعلامية قوية ولكن من يسـمع لشـعب أو حكومة خاسرة .

بقى العراق محاصراً وقطع من شماله منطقة آمنه للأكراد بـين خطـي عرض 32 و 36 والتي انتهزها الأخوان الأكراد لتعمير بلدهم ووصـله الى الحالة التي فيها الآن وخصص لهم 17% من واردات النفط فيما بعد 2003 . لم يوافق الحلفاء بخرق منطقة مماثلة في الجنـوب . فرضـت عقوبات صارمة على العراق وإدخـل فـي الفصـل السـابع واعطـي تعويضات سخية بغير حق ومضاعفة بمرات لمن طالب بهـا وأكثـرهم بدون حق بضمنهم اسرائيل والكويت وأفراد وشركات من مصر والأردن والقائمة تطول "عطاء من لايملك الى من لا يستحق" وحصار لم يطبـق في أي جزء من العالم اقتصادياً وغذائياً وصعوبات في استيراد الأدويـة والسلع الضرورية وعلى سبيل المثال فقد منع استيراد أقلام الرصـاص لأطفال المدارس الابتدائية ولا أجد أصدق قول من "ويل للمغلوب" .

وبدأت طبول الاشاعات تدور حول وجود أسلحة الـدمار الشـامل فـي العراق وبدأت الفرق في التفتيش المكثف في المدن والصحاري .

الزلزال الأكبر – الهرب واللجوء

حدث في هذه الأثناء أن توجهت قافلة مكونة من الفريـق الأول الـركن حسين كامل وأخيه صدام كامل وزوجاتهم وأولادهم وبعض الأقارب الى

الأردن بنية الهروب واللجوء لديهم محملين بالمــال ومنــاجم الأســرار الدفينة التي يسيل لعاب أميركا و اسرئيل لها ولقد أكرمهم جلالة الملـك حسين وأسكنهم أحد قصوره الضخمة في أطراف عمان وكان ذلك فـي 7- 8 -1995 وأصبح الفريق الركن محط أنظار العالم أجمع فـاجتمع بجلالة الملك حسين وانفرد بمدير مخابراته لساعات طوال وقدم صاحب السمو الملكي تركي الفيصل مدير مخابرات المملكة السعودية وعدد كبير من وكالات الأخبار العالمية المهمة ولعل أهم اللقاءات كان مـع ممثلـي الطاقة الذرية للأمم المتحدة .I.A.E.A ووكالة المفتشـين عـن أسـلحة الدمار الشامل "أنسكون" UNSCON ووحدة M16 البريطانية واجتمع رئيسها رالف يوكس EKEUS وأجريت له مقابلة مـع وكالـة CNN المشهورة وادعى حسين كامل أن سبب مغادرتهم للعراق هـو أن وزراء ومستشاري الرئيس والمحيطين به لم يكونوا قـد عينـوا علـى أسـاس قابلياتهم واداءهم وهو ما سبب ما يعانيه العراق !!! .

ناسياً أو متناسياً أنه لم يتجاوز شهادة الدراسة الابتدائية ووصل الى رتبة فريق أول ركن واستوزر لعدة مرات لأهم وأخطر الوزارات ولم يقـف طموحه بل ينظر أن يكون الرئيس البديل لعمه وولي نعمته صدام . حقاً ان العراق بلد العجائب والغرائب .

والواقع ان ادعاآته بعدم كفاءة الوزراء والمستشارين ولو أن فيها شـيئاً من الصحة بل أنها باطل أريد بها حق . والواقع ان الرجل الفريق كامل أصابه خوف وقلق من تصرف عدي نجل الـرئيس الأكبـر المشـاكس والاعتدائي الشرس وقد لطخت يداه بدماء الكثيرين وهو سـادي يتلـذذ بتعذيب الآخرين وهو من قتل كامل حنا طباخ ورجل أبيه حيث كان يعتقد بأنه اليد المدبر لزواج أبيه من السـيدة الشـابندر ، كمـا و ُعـرف

باغتصاب بنات والاعتداء على رياضيين واهانتهم لعدم نجاحهم في السباقات .

وقد صادف السيد عز الدين المجيد زوج اخت كامل حسين بأن سيارتين تتبعه على أحد الطرق فأوجس في نفسه خيفة نزل من السيارة ورأى أن عدي كان راكبها وكشر عن ابتسامة لئيمة وكان مع مرافقيه قد حفظ عز الدين هذا السر وإني متأكد من أنه قد أخبر حسين كامل بهذه الحادثة. صرح الفريق بكثير وكل الأسرار معتقداً ان كلما يزيد كرمه بالتصريحات والعطاء كلما يقربه ذلك الى الرئاسة المنتظرة ومن بيدهم الحل والربط .

أما في بغداد كانت نار الحقد والغضب تتزايد عند الرئيس ولا يعلم كم من الأسرار قد أعطيت وكم هو الأكثر الذي سيبوح به ؟؟ .



عدي صدام حسين

أرسل نجله الأكبر عدي مع علي حسن المجيد الى الأردن لمقابلة الملك حسين ليرجعهم الى العراق واذا فشل فعلى الأقل يرجع مع اختيه رغد و رنا وقد فشل فشلاً ذريعاً ورجع بخفي حنين وأحاط الملك اللاجئين بحصانة مطلقة ولم يستعملوا أي ضغط أو إقناع لإرجاعهم .

التفتيش

أخذت الهيئات العالمية للتفتيش IAEA واليونيسكوم بإبتزاز الطرف العراقي بأن لديهم خرائط وعن محلات تحوي بعض الأسرار في مزارع الدجاج وفي أطراف بغداد مما حدا بالطرف العراقي بالبوح عن بعضها ومزايدة عن المعلومات التي حصلوا عليها من الفريق والتي كانت تلك مجهولة سابقاً لهم .

أكد لهم الفريق الثوري في الأردن والأطراف العراقية بأنهم تخلصوا من أسلحة الدمار الشامل .

بدأ الفريق حسين كامل بالاتصال والتقرب بأطراف من المعارضة العراقية في الأردن وما أكثرهم هناك ومن جاء من أوروبا لإحتمال معاونته على التبديل فلم يحصل التفاعل الكيماوي بينهما .

أصبح الفريق يعاني من الوحدة ويفتقد جو الأبهة والوجاهة والاحترام والمركز الذي لم يكن ليحلم به في بغداد .

دخل وسطاء بينه وبين الرئيس وأعطاه الأمان اذا ما رجع وصاحبت هذه المحاولة مكالمات عاطفية من السيدة رغد و رنا مع عائلتهم في بغداد .

وكما أراه أنا كطبيب للعائلة لسنين ان الفريق اصيب بحالة كآبة قوية لفشله في تسويق غايته مع أطراف مهمة كأمريكا ، CIA وبريطانيا والملك والمخابرات الأخرى وحتى المعارضة العراقية ويجب أن أقول بلادته المتناهية أو تبلد نتيجة الكآبة ليثق بعفو الرئيس أبي الزوجتين وهو

الذي لم يرحم أخاً أو أقرب الأقرباء إليه وصفة الحقد والانتقام كما أوردت سابقاً متجسمة لديه وممتزجة مع أنسجته ودمه وأنا قد سمعت بأذني من الرئيس البكر وصدام قولهم علناً "ثق يا دكتور إنا سوف لن نتوانى أن نذبح هيثم أو عدي إذا ظهرت خيانة منهم" ...! لا شك لدي بأن صفات الرئيس المميزة هي الحقد والإنتقام وفقدان صفة الإعتذار والتراجع عن الأخطاء .

عرس الرجوع

رجعت القافلة متجهة إلى بغداد وكان في الإستقبال عدي صدام حسين وأراد عدي بتوجيه الإختين إلى دار الوالد وجرت موادعة تبعها إجراء الطلاق من زوجيهما مباشرة وذهب الفريق وأخوه صدام إلى دار أبيهم وآل المجيد. رفضوا تسليم أنفسهم إلى السطات وبعد أيام ثلاثة صدر الحكم العائلي العشائري بإهدار دمهم من قبل كل العائلة وسارت الوفود بالطبول والدفوف يتصدرهم الشيخ عدي بملابس الإحتفالات الزاهية وجرت مناوشات قوية وسريعة إنتهت بمصرع الأخوين ووالدهم وبعض الأقارب والأفراد وقتل واحد فقط من الفريق المهاجم والذي أجهل إسمه في الوقت الحالي وشيع في اليوم التالي بإحتفال واضح .

وإنتهت المجزرة العائلية والتي تركت شقوقاً كبيرة في العائلة وخلفت أيتام حسين كامل وصدام كامل وزوجاتهم الثكلى .

تركات هذه الأحداث على العراق – النفط مقابل الغذاء

لقد قاوم العراق البطل مقاومة سيذكرها التاريخ من الفقر والجوع وقلة في توفير الأمور الصحية والأدوية وخدمات الكهرباء والتعليم ومنع السفر والحركة وصعوبة التعامل بسبب مشاكل جواز السفر العراقي وجرت محاولات لمساعدة الشعب العراقي وأخيراً وبعد ولادة عسيرة أقر

" قانون النفط مقابل الغذاء " الذي قابل رفضاً متكرراً وتأخيراً من السلطات العراقية إلى حين إقراره بسبب إزدياد الحاجة وتفاقم الوضع الغذائي . وقد اسيئ إستعماله وتعرض لسرقات وهبات منها على شكل كابونات لصحفيين وسياسيين وشعراء ومغنيات وراقصات إلى آخره وما أصبحت رائحة المخالفات تزكم الأنوف .

هيئات ولجان التفتيش

استمرت فرق التفتيش بقلب كل حجر وصخرة وتربة في البراري بالرغم من التأكيد بعدم وجود أسلحة الدمار الشامل . عرضت أفلام مفبركه تظهر ما يشك بأنها حاملة مختبرات منتقلة !! . طال التفتيش القصور الرئاسية وحتى غرف نوم الرئيس الذي أشعر كل العراقيين بالإذلال والإنكماش وفقد العزة والكبرياء التي إشتهر بها العراقيون . إزدادت العقوبات بعد قرارات " خيمة صفوان" والتي رسمت بها خطوط للحدود العراقية الكويتية مخالفة للخرائط والوثائق للأراضي والممرات المائية والبحرية السابقة والتي لم يوافق عليها الجانب العراقي وشجبها بعضه علنياً كعدي نجل الرئيس صدام وعلى وسائل الإعلام .

الحرب الحقيقية على العراق

وأما في الأوساط العالمية وفي محيط الأمم المتحدة فقد استمر النزاع على أشده وأبواق الحرب وطبولها تدق في هذه الأوساط بقيادة أمريكا وإنجلترا وما يتبعهم من الشلة مثل كندا وإستراليا وإستمر التجمع في الخليج على أشده ليزيلوا حاكم العراق وأسلحة الدمار وإنتهى المطاف ببوش الصغير أن يعطي صدام ثماني وأربعين ساعة فقط لمغادرة العراق ولم يحدث ذلك معرفة بنفسية الرئيس العراقي ورفضه الإنسحاب من الكويت بالرغم

من الوساطات العربية الكثيرة والعالمية ومن الأمين العام للأمم المتحدة وآخرون.

ووقعت الواقعة في 20-03-2003 بالرغم من عدم حصول موافقة الأمم المتحدة بل كان بقرار أمريكي وحليفته بريطانيا . بدت مقاومة شعبية للحرب بمظاهرات كبيرة ومليونية في لندن وفرنسا ومدن أخرى في أوروبا وحتى في أمريكا الشمالية ومنطقة الشرق الأوسط .

ومن الغريب فقد ساعدت كل الدول العربية المجاورة في المنطقة بشكل أو بآخر بغزو العراق وإمتنعت تركيا وإيران من المشاركة . تحركت الجيوش بكل آلياتها الثقيلة والخفيفة مع أحدث ما وصلت إليه الأدمغة الاستعمارية الشريرة من أساليب الخراب .

حصلت مقاومة ملحوظة في منطقة الفاو في البداية وكانت هذه جنوب الناصرية .

معركة الناصرية

كانت هذه من المعارك الشديدة والمشهودة حيث أبلى بها الجيش العراقي والمليشيات والجيش الشعبي بلاء حسناً . فقد الجيش البريطاني أكبر خسائره في هذه المنطقة وأسر سبعة جنود بضمنهم المجندة الامريكية المشهورة جاسيكا – أخلي سراح الأسرى الأمريكان السبعة بعد إذ والمجندة بعد علاجها محلياً وخسر الجيش الامريكي عدد من آلياته حيث إضطر الى تبديل خطته بعد هذه المقاومة وتقسيم قواته الى فريقين عوضاً عن استمراره مروراً بالمدن العراقية واحدة بعد أخرى .

سقطت بغداد التاريخ وبغداد العظيمة يوم 9 نيسان 2003 بشكل ووقت لا يصدقه العقل مع قوة الجهاز العسكري العراقي وما صرف عليه وما حضر له الرئيس صدام وخططه الدفاعية والتي لم تطبق . سلمت مفاتيح

بغداد "مجانياً" للقوات الغازية . بقى سقوط عاصمة الرشيد لغـزاً كبيـراً والذي فكت بعض رموزه بعدئذ بأن كبار القيادة كـانوا متعـاونين مـع الأمريكان بالسر ومنهم من قبض الثمن بالملايين والنقل السفر والسـكن في جنة الدنيا "أميركا" ومن هؤلاء من هم أقرباء الرئيس ومن أعطـاهم هو مراكز القوة في الحرس الجمهوري وغيره وقيل أن بعضهم عوضـاً عن توجيه أفراد وحدتهم وتحركهم الميداني الصحيح حسب الوضع الذي يمليه عليهم أشاروا الى هؤلاء المنتسـبين بخلـع الملابـس العسـكرية والإنصراف الى بيوتهم !!! .

لا ينكر ان كان هناك فوضى عارمة وإنقطاع المواصـلات والتلفونـات وصعوبة الحركة وما وصلت اليه الحالة النفسية للقوات قيادة وافراداً من حكم الاستبداد لرئيس وحاشيته وحكم العشيرة حكماً قاسياً استمر لسنوات طويلة والذي دمر البلد وإقتصاده ومركزه القيادي في المنطقة بالتصرفات العشوائية .

ولا بد للقارئ بعد هذه الأحداث التوقف قليلاً والتفكير ملياً على المفارقات غير المعقولة بين المقاومة العنيفة في الناصرية والمعركة الأصغر حجماً في ناحية من نواحي العراق "الفاو" مع التسابق السريع الى بغداد بـدون استعمال خطوط دفاع الرئيس صدام الأول والثاني الثالث الى ماشاء الله . وسقوط بغداد العظيمة بغداد الرشيد والمنصور بيوم أو أيام بدون مقاومة أو رد فعل وبدون تواجد قطاعات عسكرية وغياب قطاعـات الحـرس الجمهوري العظيمة والتي أغدق عليها المال والانعام بكرم كبير . ان من الغريب أن يعلمنا التاريخ بعدئذ أن من سلم مفاتيح بغداد ليس هذا فقط بل سلم الخطوط الدفاعية هو من أقرب المقربين الى النظـام وقـد غـرتهم الأموال والآمال والأمان لهم ولعوائلهم ولعل من المفيد أن أذكـر بهـذه

المناسبة ان أول من أرشد الأمريكان الى محل عدي وقصي نجلي صدام هو أحد أقارب العائلة وقد قبض هديته .

وأن من أوصل الأمريكان الى مخبأ صدام هو أحد أقرابه !!؟ .

حيث نقل الى بغداد وجرت له محاكمة طويلة علنية ومتلفزة مثيرة في أكثر الأوقات . حكم عليه وعلى شقيقه برزان وعلى رئيس محكمته بندر بالإعدام شنقاً حيث رفض طلبه بقتله بعيار ناري . نفذ الإعدام في صبيحة أول يوم من عيد الأضحى 31-12-2006 والذي لم يستسغ توقيته من عدة جهات إسلامية وعربية . وقيل أن سبب التعجيل في الإعدام كان بسبب إشاعة سرت بإمكانية تهريبه من موقفه .

عم القطر العراقي من حين اجتياحه حالة شديدة من الفوضى والتخريب والسرقة والنهب وتدمير ما هو كل حضاري ودخل القصور الرئاسية وسرقوا ودمروا محتوياتها كما سرقوا ودمروا كنز العراق الكبير وتاريخه – المتحف العراقي – الشهير وحرقوا المكتبه الرئيسية وهربوا وثائق ثمينة قدرت أوزانها بالأطنان الى أميركا وإستقر قسم منها في اسرائيل " وهو ما لا يقدر بثمن لإسرائيل وتاريخها من زمن السبي البابلي " ولم تسلم حتى المؤسسات الصحية المتقدمة كمركز القلب والجهاز الهضمي وأتوا على كل ما يحمل حتى امتدت الى أسرة المرضى والكراسي ولم تسلم دائرة واحدة من السرقة والتدمير والتكسير " إلا واحدة فقط إلا وهي **وزارة النفط ومؤسساته**" وفي كل هذه الأماكن بضمنها المتحف العراقي وظل الجندي الأمريكي متفرجاً على ما يحدث والابتسامة ملئ شدقيه ويرد على تحية الغوغاء بهاي الأمريكية " hi " المعتادة .

فصل الختام

أخي القارئ العربي القومي من خارج العراق .

لقد كتبت مشاهداتي منذ أشهر وأنا أراقب الأعداد الغفيرة والجماهير العريضة – ولا أعتقد بأنني أقل قومية وعروبة منها – التي أحبت القيادة العراقية ، بل وصلت إلى حد العبادة ، وشاركت في كيل المديح لها بل وتقديسها ، ولم تكن على خطأ بقدر ما كانت مضللة إذ توقعت منها واعتبرتها (بسمارك العرب) فما أحوجنا إلى رمز كهذا في عصر تراجعت فيه الأمة العربية إلى الحضيض أو هبطت إلى أسفل درك ، ولتكن على ثقة يا أخي القارئ العربي بأنني بحاجة كبيرة جداً قد تفوق حاجة الآخرين إلى قيادة تأخذ بيد الجماهير إلى ما يخرجها من الضآلة والذل التي وصلت إليهما . إنني مثلك في أمس الحاجة إلى من يقودني إلى تحقيق ما أصبو إليه ، لقد عشت مأساة العرب في 48 ونكستهم في 67 وكل الإنتكاسات الأصغر حجماً ، وكل ممارسات إسرائيل المهينة والمذلة ، وصمت وشلل القيادات العربية رغم عددهم وإمكانياتهم التي لا تضاهى أمام التنازلات المستمرة والتحقير المتواصل ، وقد ابيضت عيناي وأنا أنتظر اليوم الذي أرفع فيه رأسي بين مختلف الأمم والأقوام .

لقد صاحبت القيادة يا سيدي القارئ لسنين طويلة ، والتي ظهرت أمامكم بصفة المنقذ البطل الذي سيحقق النصر ويحول الأحلام إلى حقائق ولكنها في الحقيقة نمر من ورق، وهي شخصية مليئة بالأمراض ومركبات النقص من نرجسية وحب عظمة وسادية وعشائرية وحب للسيطرة والعرش أدت ليس إلى تحطيم وتهميش العراق العظيم فقط بل الأمة العربية أيضاً ، وإذا ما توقفت لحظة وتساءلت من هو السبب في إحتلال

المنطقة العربية كلها من قبل المستعمرين الجدد ومن أوصل الإمبراطورية العربية إلى الذل والهوان لما وجدت سبباً غيرها .

إن توزيع الأموال على الشعراء والمغنين والراقصات والتبرعات بالملايين هنا وهناك ، وإرسال مائة مليون دولار إلى سود أميركا الجياع في الوقت الذي يموت فيه أطفال العراق من الجوع والفاقة والمرض كلها علامات مرضية مقنعة لمن يُعمل العقل والفكر ولا يترك للعاطفة أن تتحكم في نظرته للأمور . لم أكتب فصل النهاية لأنني اطلعت على مأساة الفصل ولكني على معرفة بنتيجته وأعرفه حق المعرفة فقد أعلنت أن هذا النظام لن يتعدى أربع سنين بعد 1980 ولكني كنت على خطأ كبير، غير أني أخطأت التقدير الزمني فقط ويشاركني في سوء تقديري مفكرون كثيرون .

سيدي القارئ : أريد أن أقول : إن القائد لا يصنع الشعوب بل إن الشعوب هي التي تصنع قادتها ، ومتى تسلحنا بالوعي والقناعة فان أحسن ما نصبو إليه هو الديموقراطية والحرية والتعددية وإعطاء الكفاءة حقها ، والمحافظة على حقوق الإنسان ، ووضع كل شخص في مكانه الذي يستحقه ، عندها قد نصل إلى بعض أو جزء مما وصلت إليه إسرائيل . وقد يولد في الأمة رجال يقاربون رجال وحكام إسرائيل في تفانيهم وإخلاصهم لبلدهم ولن يمنع غربال شمساً ساطعة .

من المسؤول ؟

لقد عشت لأرى نهاية ليل طويل مأساوي وفظيع ، روع أبناء شعبي وأذاقهم صنوف العذاب ، ومارس أشكال التدمير المختلفة بحق وطني وحضارته العظيمة ، ولم يتوانَ عن استخدام القنابل العنقودية ، والانشطارية ، وصواريخ توماهوك ، وأم القنابل وغيرها من وسائل

التدمير التي ترفضها كل الشرائع والقـوانين ، ولقـد آلمتنـي مظـاهر الفوضى العارمة وما حدث من سلب ونهب وحرائق للمراكـز العلميـة والثقافية والحضارية والجامعات والوثائق التي لا تقدر بثمن ، مما جعـل سؤالاً حارقاً يرتسم أمام ناظري هو: من المسؤول عن هذا كله ؟ .

لا أسأل هذا السؤال بهدف محاكمته أو إنزال ما يستحق من العقاب به بل بغية الاعتبار وأخذ العظة مما جرى وتجنب هذه المصـائب ، ولا بـد للمحقق الدقيق من العودة إلى الماضي لتحليل المجتمع وسأتجنب تحليـل مرحلة ما بعد الاستقلال " أو بالأحرى بعد الاستعمار" باختصـار شـديد تاركاً التفاصيل للمؤرخين الذين أشبعوها بحـثـاً ودراسة .

لقد تعرض العراق ومجتمعه إلى هزات وانقلابات متعددة لأسباب بعيـدة عن الديموقراطية بعدها عن مصلحة الشعب (ولو أننا شـممنا بعـض رائحة الديموقراطية في فترة متأخرة من الحكم الملكي) . كانت تنفـرد بحكم العراق فئة تملك السلطة والمناصب بالتحالف مع القوى الأجنبية ، وقد تعاقبوا على الحكم كأنها دورة تعيد نفسها ، وقد أستبعد بعض مـن يحظى بتأييد الشعب من أي منصب كبير ، وحرمت عليهم مناصب مهمة كالخارجية والداخلية والدفاع ومراكز المسؤولية . أمـا القليلـون الـذين وجدوا لهم موطئ قدم في الشرطة أو الجيش فيقفون عند حد معين فـي الترقية لا يتعدونه وتجري إحالتهم بعده إلى التقاعد . بسبب هذه الظروف وإحتكار هذه الفئة للسلطة والمناصب وتغييب الشعب عن انتخـاب مـن يمثله في مؤسسات الدولة تولدت مشاعر الغضب في النفـوس ورغبـت الجماهير في قلب النظام ، وانطلقت ثورة 14 تموز المعروفة ، وكثرت الكتابات في الصحف أو المقابلات التلفزيونية في هذه الأوقات لأشخاص من مختلف الانتماءات ممن لهم صداقات أو علاقات قرابة أو ذوي حظوة

لدى الفئات الحزبية المختلفة ، ولا بد أن أذكر أن هذه الملاحظات والكتابات لم تكن محايدة أو منصفة وقد يتطرق بعضها إلى حواشي وأطراف وعبارات أرى من الضروري أن أغض النظر عنها وأذهب إلى نواة الموضوع في كتابتي لعل المنطقة تتجنب المآسي والآلام . وان صح ما أقوله على العراق الحبيب فقد ينطبق هذا على أكثر من نظام .

إذا تركنا النظام الملكي خلفناً بسبب معالجته من أكثر من كاتب وباحث وذهبنا إلى الثورة التي يمكن تسميتها بـ "ثورة" رغم بعض مساوئها ، فقد جاء بها ضباط أحرار يكن أكثرهم الخير والرغبة في الإصلاح لبلدهم وكان أكثرهم من التكنوقراط وأبناء العائلات الكريمة في البلد فضلاً عن اتصافهم بالوطنية والنقاء النسبي . كانت الحكومة ضد التدخلات الأجنبية وذات اتجاهات عامة جيدة جداً وكانت تنادي بالعراق أولاً بكافة أعراقه وطوائفه ومذاهبه لينصهروا في بوتقة واحدة قبل اندماجه في القومية العربية التي ستثير مشاكل واضطرابات داخلية ، لكنها – أي الحكومة – لم تكن بعيدة في الوقت نفسه عن القومية العربية أو لم تعلن تنصلها وطلاقها وانفصالها عنها . لقد حدث استقطاب مجسم لفئتين رئيستين هما : اليمين القومي واليسار المتطرف مما أدى إلى شرخ كبير ونزاع مستمر استعمل كل طرف فيه عضلاته ، ولم يكن الرئيس أو الزعيم تابعاً لأحدهما لكنه قرب طرفاً وأبعد آخر لظروف مختلفة ، وقد نتجت عن ذلك مآس كثيرة من سحل وشنق وخنق للحريات والجميع يتذكر حوادث كركوك والموصل ، وقد أدى هذا إلى تهميش سلطة الزعيم الذي بات يتخذ قراراته بشكل فردي ، وانسلخت عن حكمه عناصر جيدة فيما استغلت جماعات أخرى لإحداث اضطرابات عميقة . وجاء انفصال العنصر الكردي عن التحالف الديموقراطي مما هيأ الطرف الآخر

لإحداث اضطرابات لأسباب تافهة لكنها انتهت بقطار أمريكي هزيل أنهى وأسقط أول حكم وطني في العراق ، وترك حمامات دم في مناطق متعددة تفوق بكثير ما حلموا به وما أراده الأمريكان أنفسهم كما ظهرت على شاشات التلفزيون مؤخراً وحديثاً .

بدأ رجال الحكم والوزراء بالاستقالة والتملص من أخذ موقف معارض صلب ضد انفراد الزعيم بالسلطة وإسناده الكامل من قبل اليسار المتطرف ، وهذه مسؤولية وطنية كانت واجبة على رجال وطنيين . وقد أسرف اليسار المتطرف بعدوانيته التي أدت إلى اتساع الفجوة بين فئات المجتمع العراقي وهذه مسؤولية أكبر وأشد ضرراً وأخيراً استعمل الطرف الثاني أتفه الأسباب لإثارة الفتن والاضطرابات والاستعانة بأطراف غير عراقية لإسقاط حكم وطني تحت ستار القومية والأمة العربية الواحدة وهم الذين تنصلوا منها في فترة لاحقة من الحكم .

هيأ فشل حل القضية الكردية وتعنت كل طرف وتمسكه بما يريد الفرصة لليمين للقيام بانقلاب هزيل يحوطه بكثير من علامات الاستفهام ، ولا يجب أن ينسى القارئ هنا ان رحمة الزعيم وتبنيه شعار (عفا الله عما سلف) ترك الكثير من المتآمرين ليس عليه فقط بل على كيان الجمهورية في داخل بيته ووزارته وحتى في وزارة الدفاع . وجاء دور الشعراء والكتاب والمرتزقة الذين ألّهوا الزعيم إلى درجة – لا تقارب ما سمعناه مؤخراً – بل بدأت بكيل المديح والإطراء "ماكو زعيم إلا كريم" ومنهم من رأى صورته على قشرة بيضة أو على سطح القمر. أقول هذا ولا أشك أن هناك أسباباً أخرى لتحميل مسؤولية هذه الحقبة من تاريخ العراق .

وإذا واصلنا البحث عن الفترة الأخيرة من الحكم الجمهوري بشقية 63 و68 فقد كان انقلاب 63 هزيلاً جداً كتب له النجاح بقدرة قادر ودعم أجنبي واضح ثبته رجال الثورة الأوائل وأكده وزير الداخلية المصري السابق ورسخته تصرفات وتصريحات بعد تبديل 68 كما سنأتي عليه . ولا يزال العراقيون يذكرون المآسي والإجراءات والدماء والسجون الرهيبة وتكاد تكون تلك الفترة الوحيدة في تاريخ العراق التي اختطفت فيها بنات وسيدات من بيوتهن ودوائرهن ومدارسهن إلى أماكن مجهولة واغتصب عدد كبير منهن وظل مصير العدد الأكبر مجهولاً . وجاءت حركة عبد السلام عارف"التصحيحية" وتحسنت الأمور نوعاً ما وجرى حلّ الحرس القومي وأطلق سراح عدد كبير من السجناء وانتهت الاعتداءات لكن الطائفية برزت بشكل واضح وظهرت مفاسد أخرى لعل أحدها المساومة على موضوع الكويت واستلام الملايين بأسلوب يفتقر إلى الأخلاق . أما الرجل المناسب في المكان المناسب فلم يكن له محل من الإعراب ولم يكن إحدى شعارات ذلك الحكم أو أي حقبة من حقب تاريخ الحكم الوطني خف أو ثقل .

لقد لف احتراق طائرة الرئيس عبد السلام الكثير من الغموض وعلامات الاستفهام ولا يمكن للباحث الموضوعي أن يبرئ الذين لعبوا الأدوار اللاحقة أو الإصبع الأجنبي من تلك الحادثة ، وقد كان قرار تنصيب خليفة للرئيس المحترق الخطأ الأكبر. وكان لبعض ضباط الجيش الموقف الضاغط- بل والآمر- بوجوب احتفاظ العسكريين برئاسة الجمهورية ، ولو أن التصويت كان يرجح كفة الدكتور البزاز الذي كان رئيس الوزارة آنذاك ، وهو رجل قانون كبير وعميد كلية الحقوق وصاحب مدرسة سياسية وله مؤازرون كثيرون من مختلف طبقات

الشعب ، كما أنه ممن يشهد لهم بالاستقامة والوطنية ، لكن سبق السيف العذل وجيء برجل شديد الطيبة قد يتمتع بكفاءة عسكرية لكن تنقصه الخبرة السياسية والإدارية والحزم والصلابة واتخاذ القرار . واستخدمت تجمعات حزب البعث هذه الثغرات للانقلاب المعروف فهل يصدق أحد ذو بصيرة أن تأتي فلول جماعة 63 إلى الحكم بعد كل ذلك التاريخ الأسود ! ان شهوة الحكم والسلطة وما يتبعهما هي الحافز الأكبر أما الشعارات والرغبة في الإصلاح فلم تكن الهدف الأول .

أين كان الشعب العراقي الشامخ ؟ هل نسي في أقل من خمسة أعوام ما حدث في السابق ؟ لم لم تظهر معارضة أو مظاهرة ؟ وقد يعاب على الشعب العراقي غياب تنظيمات ديموقراطية أو وجود مقاومة لنظام أثبت نيته من الدور الأول . وأي تحليل لخلفية كثير من رموز الفئة الآتية كان كفيلاً بتفسير نوع الحكم الذي ينتظره قطرنا العزيز . لقد نكثت هذه الفئة بوعودها في أوائل أيام هذه الانقلابات وهذا مؤشر كافٍ وان كان هؤلاء لا يتمتعون بأي قيم أو احترام للعهود والوعود . تبعت هذه الأحداث تصفية رموز أخرى ومن ثم جاء دور جهاز حنين والسجون الرهيبة والسرية التي لا يعرف أحد شيئاً عنها ، أو عن التهمة الموجهة لمن يؤخذ إليها أو أي محاكمة أجريت لهم أو من دافع عنهم أو أين ذهبوا أو ما هي نهايتهم وبينهم سيدات وآنسات وموظفات وطلاب وهي ظاهرة لم يسبق أن حدثت في المجتمع العراقي ورغم ذلك لم ينبس أحد ببنت شفة .

وجاءت إعدامات كوادر الحزب والدولة (المتآمرين) ولم يقتنع أحد أو يسمع بإدانة لهم أو شهود حق أو دفاع ، وقد أخذت منهم الاعترافات بأساليب لم يعرف أكثر منها انحطاطاً ثم أعدموا من قبل رفاقهم ورقص الكثيرون لهذه الإعدامات من الذين لا يصح لومهم بسبب الجهل وغياب

الديموقراطية ، واستمرت الأمور والمخالفات المالية والسياسية والقانونية ولا من أحد يقف في وجهها وحتى من بقي على كراسي المسؤولية أصبحوا قابعين على عروش خاوية يخشون أن تسكب النار على لحاهم بعد أن طالت من هم أعلى منصباً وأكثر أهمية ، وتدنت الكفاءات بدوائر الدولة إلى درجة لا يصدقها العقل وقد سيطر كتبة وفراشون أو ملاحظون على سفارات مهمة في الخارج ، وتفننت دوائر الأمن وأرسلت الوفود إلى مختلف الأمصار للتدريب على وسائل التعذيب وقد بزّت هذه الفئات تلك المراجع والأساتذة في التعذيب ، في حين فتحت خزائن الدولة لكل من لا يستحقها ما دام في خدمة الحكم أو يأتي بالمحرمات التي يريدها ، أما الجيش العراقي العظيم الذي شهد له الجميع بإنضباطه فجرى تسييسه خلا بعض المشاركات السياسية . ولم يكن ليسبق ضابط زميله بترفيع يوم واحد ، وحفظ السلم الترفيعي كان من صلب تكوين الجيش العراقي (أقول سيس بمعنى صار فلان فريق وآخر آمر لواء وهم ليسوا عسكريين أو من كان منهم جندياً أو نائب ضابط على أكثر تقدير) ورغم هذه الممارسات ظل الهدوء تاماً على كل الجبهات ، ألم تستحق هذه وأبسط منها مظاهرات أو اعتراضات أو انتفاضات أو نشرات في بلد يتمتع بديموقراطية بسيطة ؟ وبديهياً فقط سبق وصفيت ما كان يسمى أحزاباً حيث إختفى كل رد فعل يستهدف التصحيح أو المعارضة .

ماذا إذن عن دول الجوار أو الدول العربية ألم تكن لديهم أجهزة مخابرات تعرف بما يدور في هذا القطر المهم وتاريخه السابق ، ولماذا لم يمدوا يد العون إلى شعب مقهور من نظام قاهر ومتسلط خلاف ما حدث من تدخلات في عهود سابقة بإبداء كل الاستعدادات لإسقاط نظام

حكم وطني لم يؤذ شعبه كما حدث في هذه الفترة ، بل حـدث العكـس بالضبط عند اشتعال الجبهة العراقية الإيرانية فقد ناصرت الدول العربية (أخاها الظالم) في اعتدائه الصارخ على ثورة ثائرة على حكـم الشـاه الفاسد ، وقد ساعدوه بالمال والإعلام إلى أكبر حـد ممكـن واسـتغلوه بأبخس الأثمان وشاركوا بهدم اقتصاده القوي وسكتوا على جرائم تقشعر لها الأبدان باستخدام السموم ضد شعبه وضد الجارة المسلمة إيران وبعد اندحاراته في الحرب في سنواتها الأولى ، ورغم الاستعداد التـام مـن طرفه وعدم توقع الجانب الإيراني لحرب قادمة فقد باركـت وشـاركت وتفرجت جهات أجنبية شاهدت هذه المجابهة لثمـاني سـنين ولتظهـر إسرائيل في نهايتها هي المنتصر الأكبـر . ألا تتحمـل تلـك الجهـات مسؤولية كبرى بدعم حكم فاسد وتشجيعه على خطوة قادمة وهي اجتياح الكويت ولا حاجة لتكرار ما حدث فيها بقدر مـا تبعهـا مـن كـوارث واحتلال الخليج والجزيرة العربية والأمة العربية جمعاء وإذلالها وتمرير كل ما من شأنه إخضاعها وتنفيذ كل ما أرادته وتريده إسرائيل . تعدى ذلك الدول العربية إلى الإسلامية فهل يتـنـصـل الجميـع مـن هـذه المسؤوليات ويضعونها على كاهل عصبة من هواة السلطة والتعذيب .

أما الجامعة العربية والدفاع المشترك عن الكويت فحاولت حل المشـكلة ولم تفلح في الحصول على اعتذار منه ، وهكذا بات الباب مفتوحاً علـى مصراعيه لاحتلال أجنبي اقتصادي وسياسي وعسـكري متحـالف مـع إسرائيل للسيطرة على (كنتم خير أمة أخرجت للناس) . إن الجهات التي باركت وشاركت وساهمت في كل متطلبات الحرب العراقية الإيرانية هي نفسها التي وقفت بعد ذلك إلى جانب أميركا وبريطانيا التي تشن حرباً لا مثيل لها على العراق بدعوى التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل . وأريـد

هنا أن اوجه خطابي إلى المثقف الغربي عله يسأل نفسه : أين تصنف رؤوس كروز وتوما هوك وأم القنابل والقنابل الانشطارية في قائمة الأسلحة ، خصوصاً وأنها استخدمت ضد شعب صديق .

إنني ألوم الشعراء والممثلين والكتاب ممن قاموا بتأليه الحاكم وأوجبوا على الشعب العبودية له ولا أضع اللوم على جماهير كثيرة لم تستعلم الصالح من الطالح ، بشر يرقصون ويتظاهرون بإستمرار في الشوارع ببدل أو بدونه . إنها ظاهرة غياب الديموقراطية بكل معانيها . إن الديموقراطية ليست بتعدد الفئات ولا أقول الأحزاب التي زادت على الستين في المهجر، وكان شعارهم واحداً وهو "إسقاط الطاغية". إذن لم لا تتحدون على هدف واحد وغاية واحدة بحيث لا تؤدي الفروق بينكم إلى أكثر من حزبين أو ثلاثة تختلف في طريقة الحكم وفي التعامل مع قضايا الشعب كما في البلدان المتقدمة وإسرائيل التي تكونت من أشتات الشعوب . ولعلي لا أخرج عن الإطار حين أقول إن الظاهرة التي شوهدت مؤخراً بإنتخاب رئيس وإعادة إنتخابه وإنتخابه لفترة ثالثة ومن ثم لمدى الحياة وتعديلها إلى تهيئة أحد أنجاله ليرث هذا الكرسي المسحور لا توجد في العراق فقط بل في أكثر من بلد عربي ، أقول أن هذه الظاهرة ؛ هي تجسيد لحالة التخلف في منطقتنا العربية ، وليس لنا إلا النضال الهادئ لتحقيق حكم الشعب من الشعب وبواسطة الشعب بطريقة ديموقراطية سليمة ، وأن لا محل لطرح شعارات - كما قال أحدهم في الندوات التلفزيونية الأخيرة – فلقد شبعنا من الشعارات والطروحات والمناهج التجريبية التي كانت في جميع الأوقات أو أغلبها حبراً على ورق . "وقل اعملوا وسيرى الله عملكم" وهذا هو ديدن الحياة والسنة لمن أراد الحياة والبقاء بعز وكرم وإحترام .

خاتمة الطبعة الثانية (مايس 2012)

أما وقد مرت أربع سنين على الطبعة الأولى فلا أرى مهرباً من كتابة سطور أخرى ومن قلب موجوع لعراقي قارب على نهايته : لقد عدت الى العراق سنة 2004 كواحد من فريق علماء من أمريكا لإلقاء محاضرات علمية ولفترة اسبوع . لقد مدد الاسبوع لأسابيع بل لأشهر في البلد الحبيب منشغلاً بالتحضير لعودتي وعائلتي الى جذورنا . توافد خلال هذه الفترة لزيارتي الأصدقاء والزملاء للسلام واشتد طلبهم نبرة مع الأيام بالالحاح وبحرارة ونصيحة بترك العراق بأقرب فرصة والى الخارج ثانية لعدم توفر الأمان وحدوث قتول واختطافات" بالرغم من بعدي عن أي فئة أو حزب أو طائفة وهكذا رجعت مغترباً بين أقصى الغرب ووسط الشرق " أبوظبي " وأنا أتابع عن كثب ما يجري في بلدي بلا استقرار أو أمن بل كلام كثير عن "الديموقراطية " وحيث لا ديموقراطية حقيقة فيه أو لمفهومها حتى بين الفئة الحاكمة . والطائفية ضاربة أطنابها على أساس الهوية أو على أسس جغرافية . كيان مهزوز لدى الدولة وتيارات سياسية متنافرة . تصريحات مستمرة لرؤساء الكتل ومسؤوليها وما أكثرها ما هو متقاطع مع تصريح رسمي أو مسؤول حكومي . مزايدات في داخل القطر وخارجه ظاهرة لم تشاهد في أدوار الحكومات السابقة ولم نشاهدها في العالم اطلاقاً مهما بلغ درجة التخلف والتطور فيه .

سفرات مستمرة وخطوط الطيران مشغولة بنقل قياديين متوجهين الى مختلف البلدان وعواصم المنطقة ليدلوا بتصريحات تختلف عن بيانات رسمية صادرة عن مرجع رسمي وقانوني فهل سمع أحد بهذه الظاهرة في دول المنطقة والعالم .

الستم المنادين بالديموقراطية ؟ فإن كان الحكم كذلك والبسنا الحلفاء هـذا الرداء فلم لا نرجع الى البرلمان وله ان يسقط حكم ويسحب الثقة عنه ، أليس هذا أكثر إحتراماً وحفظاً للكيان الوطني وأفضل من إستجداء هـذا وذاك أو إستلام ملايين من المال الحرام تجاه مثل هذه الأعمال ....
كيف تحترم نفسك أيها القيادي المسؤول إذا لم تحترم بلدك وكرامته .

ان الفوضى العارمة وإنعدام الأمن والبطالة والفقر وتدني الخدمات وإنتشار الجهل وانخفاض التعليم والخدمات الصحية بعد أن كان يشهد لها بأعلى المستويات في سنين خلت . وبلد يفتقد الى تخطيط علمي من قبل وزير أو مؤسسة لها علم ودراية بالتخطيط . ان البطالة لا تحل بإستحداث الآلاف من الدرجات والوظائف وإن من السهولة لأي متطلع عابر أن يرى تكدس أعداد من الموظفين بغرفة أو دائرة واحدة والتي من الممكن أن تدار من قبل موظفين اثنين . وهناك عدد غير محدود لمدراء عامين ودرجات خلقت لهم لإرضاء كتل أخرى وأشياء مماثلة في خلق وزارات أو وكلاء وزارات غير ضرورية ، وهذه ثانية لتمشية المحاصصة الخبيثة .

أين المنطق والتخطيط وعلى سبيل المثال لا الحصر تخصص مئات ملايين الدولارات لإنشاء مطار جديد في بقعة جغرافية لا تبعد الا مسافة قصيرة عن مطار بمنطقة مجاورة في الوقت الذي لا تزال تتواجد المدارس الطينية في مناطق كثيرة أو إنعدام وجود خدمات طبية في قرية هي بأشد الحاجة لها . وليس هناك تخطيط لتوزيع الأطباء بل لهم الحرية بمغادرة العراق بعد دراسة مجانية وبكلفة عالية للحكومة لينتشروا الى مختلف أمصار العالم بعمالة زهيدة والتي قد تزيد بما تمنحه لهم حكومة العراق الموقرة .

ان البطالة قد تعالج جزئياً بإيجاد وتأسيس المعاهد والمدارس المهنية والصناعية والمعاهد الزراعية وتشجيع الزراعة وتشغيل الآلاف من المتعلمين بالزراعة الحديثة . نظرة عميقة أو أعمق لمن يتجادلون لسنين على الدستور والمحاصصة أقول لهم الى النظر في مصادر المياه ومصير النهرين الخالدين دجلة والفرات فلم نسمع أو نرى مناقشة جادة على مستوى اقليمي أو عالمي على هذا الموضوع الحيوي أو الحياتي . الجميع يتكلمون ويكتبون عن الفساد والذي ينخر بكل مفاصل الدولة من الصحة والدواء والتعليم والأمن والسجون وقد رأينا الهروب الجماعي من عدة سجون لمجرمين مثبتة عليهم من أبشع الجرائم ومن حكموا بعقوبة الإعدام . نسمع على الدوام بإلقاء القبض على عصابة أو عصابات ولا يعرف الشعب عن ما حدث لهم والجميع متعطشين ليروا نتائج اجرامهم . يتساءل الكثيرون عن هل هناك حساسية بالانسانية أو المسؤولية عند كبار المسؤولين عندما يأتي موضوع الرواتب والامتيازات . لم يبقى سراً عند القاصي والداني أن رواتب الرئاسات والبرلمانيون لا يصل الى مستواها أو قريب منها عضو البرلمان الإنجليزي أو الأمريكي أو الأوروبي ولا يتقاضى رؤساء هذه الدول أو الدول الأوروبية أو ملوكها ما يتقاضى أمثالهم في العراق أما حان الوقت للاستيقاظ من هذا السبات الذي أحدث بزمن الاحتلال وبزمن بريمر بإمعان لتدمير البنى التحتية . ألم يسمع الذوات المحترمون صرخات الجوع والحاجة من الفقراء والأيتام والأرامل في مناطق كثيرة من العراق الحبيب وما حصلوا عليه من حكامهم يناقش موضوع الرواتب والمخصصات في المجلس واللجان وترجع ثانية بدون أخذ قرار فعال .

" الدستور – الدستور " لنحتكم الى الدستور .... كلمة وشعار نسـمعه ليل نهار على لسان كل فئة وكتلة . هل يعلم الشعب العراقي كيف كتـب ومن كتبه والفترة الزمنية الذي كتبت فيه ؟ أنه ليس السنهوري باشـا أو من بوزنه أن أكثر مسؤولي الكتل شاركوا به وبكتابته ومما لا يتماشـى مع احتياجات الشعب ويفتقر الى الاستقرار والتوازن المعقول وجاء كثير مما فيه ليلائم الشخص أو الفئة التي سترتدي هذه البدلة ليلائمهـا بكـل قياساتها.

سمعنا من أكثر من جهة ان في الدستور ثغرات وفجوات ونواقص توجب التصحيح وانه ملغم ، حسناً فما المانع من تواجد لجنة الدستور مسـتمرة بالعمل وبدون سقف زمني محدود لإعادة النظر فيه كل ما دعت الحاجة اليه ورفع الألغام التي وضعت فيه لحاجة في نفس يعقوب كمـا يقـول بعضهم .

وهل من المعقول أن يبقى نظام الأقاليم كما هو عليه الآن لترفع الأعلام بين كل زمن وآخر طلباً للانفصال وإعلان الاسـتقلال : أميـر جديـد ورئيس وزراء آخر ووزراء بمنطقة عراقية جغرافيـة صـغيرة بالكـاد تتعدى سعة أو مفهوم القضاء " سابقاً " ان في خفايا هذه الطلبات تمزيـق العراق وشرذمته

لنأتي الى الديموقراطية ثانية لقد نهج الوضع الجديد " بالحرية " من بـين العديد من المفردات الديموقراطية حيث أصبحت هـذه الحريـة مطلقـة وبدون حدود مما أخلت بتقاليد وأخلاق البلد والأجيال . وعدد الصـحف الهائل والفضائيات التي تجاوز الأعداد المقبولة ومنها ما يقول بوضـوح الى مشاكسة الحكم القانوني والسب والشتم انها الحريات المتنقلة ونود أن لو كانت الانتقادات بناءة وليست بالهدامة والمفرقة للوحدة الوطنية . هل

جاء العراق بديموقراطية حقيقية ؟ هذا ما لم نشاهده في الواقع انها محاصصة ملعونة وخبيثة تدعي مشاركة أو تشارك لمسميات أخرى انها سرطان مدمر ومرض خبيث .

أثبت التاريخ والمراقبة ان الديموقراطية يا أعزاء هي كما يحدث في أميركا وإنجلترا وأوروبا وخصوصاً الدول الإسكندنافية وحتى في الدولة اللقيطة أو دولة اللقطاء حزبين أساسيين أو ثلاثة أحدهم في الحكم وهو حزب الأكثرية يتضلع بالمسؤولية تقابلها المعارضة المسؤولة والتي تنتقد لإصلاح ما فسد. والكلام عن الديموقراطية لابد لي العودة لقول كلمة عن الانتخابات : لا يخفى ان العراق هو أحد الشعوب المتطورة ونسبة الجهل عالية فيه ومن الخطورة أن تكون الانتخابات على أساس الكتل وتوجيه الناخبين فيها من قبل رئيس كتلة أو أحد المؤثرين بانتخاب قائمة لا يعرف المنتخب عنهم شيئاً وليسوا من منطقته ولم يحصل أن اجتمع بهم هذا المرشح وما هي مشاريعه وما هي مطالبهم .

والثقافة التي تسبق الانتخابات واجبة ، صحيح ان النائب يمثل كافة العراق ولكن كيف يتسنى لنائب من دهوك على سبيل المثال باحتياجات سكنة الكاظمية أو الأعظيمة إلا من عاش ونشئ وتحسس بصعوباتهم وبالتوجه الجماعي خطورة الفساد والرشوة وشراء الأصوات خطر واقعي وحقيقي .

أتساءل الآن ما هي الغاية والهدف لتأسيس عشرات الأحزاب وقد تجاوز العدد المائة أهو رئيس ونائب للرئيس وأمين السر العام وسكرتير وهيئة ادارية وأمين للصندوق لكل واحد من كل هذه الأحزاب ؟؟ .

لقد قلت مخاطباً جماهير عراقية من الحضور وبوجود رئيس الوزراء المالكي في سنة 2008 في أبوظبي " أن لن تقوم قائمة للعراق بدون

الكفائة والمواطنة " وأعدت نفس المعنى في اجتماع ثاني في أبو ظبي بوجود سماحة السيد محمد بحر العلوم ومعالي الدكتور الربيعي مستشار الأمن العام وقد اشاد بهذا التعبير السؤولون والحاضرون وسأبقى ناطقاً بها ورافعاً لهذا الشعار طيلة حياتي وأرجو وآمل أن أكرر ما قاله أحد الحكماء ان آخر ملاجئ الأوغاد هي " الوطنية " وأن لا تتكرر هذه إلا لمن يعنيها بقلبها وقالبها .

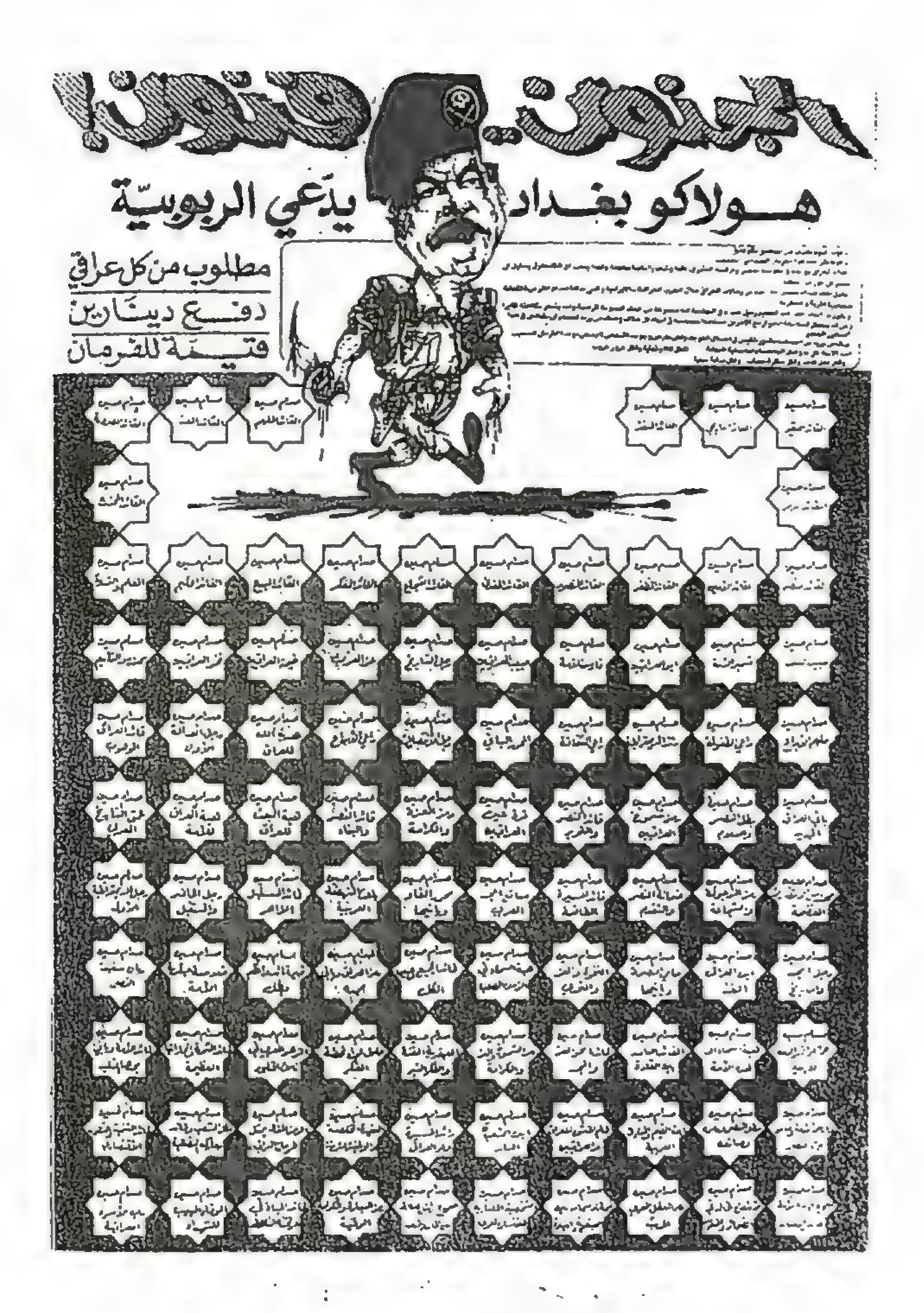
وأختم وأقول ما يكرره أكثر من حكيم استمعوا لشعوبكم استمعوا لشعوبكم

استمعوا لشعوبكم .

من لم تفده عبراً أيامه كان العمى أولى به .....

وفي الختام ليس لي إلا الدعاء الى الخالق والباري أن يصلح حال هذه البلاد وهذا هو رأس مال وشعار أحد المفلسين" الشريحة الكبيرة الصامتة ".

دكتور. فرحان باقر



هـولاكو بغداد يدّعي الربوبيّة

مطلوب من كل عراقي
دفـع دينارين
قيـمة للفرمان

الصفات والأسماء التي أسبغت على صدام

بسم الله الرحمن الرحيم

رئاسة
قيادة الثورة
رقم القرار / ١٥٤٦
تاريخ القرار / ١٩٦٩/١١/١٦

قرار

استنادا الى أحكام الفقرة (أ) من المادة الثانية والاربعين من الدستور المؤقت قرر مجلس قيادة الثورة بجلسته المنعقدة بتاريخ ١٩٦٩/١١/١٦ ما يلي :-

اولا : احالة الاطباء المبينة اسماؤهم وعناوينهم ادناه ، على التقاعد .

الاسم	عنوان الوظيفة			
١ - فرحان باقر	باطنية وصدرية كلية الطب / جامعة بغداد استاذ			
٢ - سالم فاروق الدملوجي	باطنية وصدرية كلية الطب / جامعة بغداد استاذ			
٣ - عبد الجليل شوقي	باطنية وسايكولوجي	=	=	PROF.
٤ - خالد ناجي	جراحة	=	=	PROF.
٥ - زهير يوسف البحراني	جراحة	=	=	PROF.
٦ - علي غالب ياسين	تشريح	=	=	PROF.
٧ - عز الدين شكارة	باطنية والعصبية	=	=	PROF.
٨ - خالد عبد العزيز القصاب	جراحة	=	=	PROF.
٩ - محمد علي خليل	باطنية	=	=	PROF.
١٠ - حامد الندري	باطنية وامراض الدم	=	=	PROF.
١١ - عبد الكريم الخطيب	جراحة	=	=	PROF.
١٢ - هاشم عبد الرحمن	جراحة	=	=	PROF.
١٣ - نجم عبد الله الحديثي	جراحة	=	=	PROF.
١٤ - مهدي مرتضى	باطنية	=	=	PROF.
١٥ - احمد ناصر نصر الله	فسيولوجي	=	=	PROF.
١٦ - لقمان امين زكي	اطفال	=	=	PROF.
١٧ - فوزي الداراشي		=	=	Ass. PROF.
١٨ - حسن ماجد السامرائي	جراحة	=	=	
١٩ - [illegible]		=	=	Ass. PROF.
٢٠ - غالب قاسم الاعرجي	جراحة	=	=	
٢١ - محمد صالح العاني	جراحة صدر	=	=	Ass. PROF.

صورة من قرار إحالة الدكتور فرحان باقر
مع مجموعة من الأطباء على التقاعد

Letters

Iraq: the price of freedom

September 4, 1980

مقال الصحيفة البريطانية Hospital Medicine

حول مجزرة مدينة الطب

فهرس المحتويات

الاهداء 3

شكر وتقدير 4

تقديم 5 ــ 11

المقدمة 12 ــ 14

الفصل الأول : 15 ــ 23

النشأة 15

التيارات السياسية 15

الخدمة العسكرية 15 ــ 19

بداية الطريق في المهنة 19ــ 20

السفر إلى أمريكا ــــ التدريب والاختصاص 24 ــ23

الفصل الثاني : 24ــ 44

بداية الطريق-بعد التخصص والرجوع من أمريكا وبريطانيا 24 ــ 26

ثورة 14 تموز 26 ــ 27

زيارة الاتحاد السوفيتي 27 ــ 29

مع الزعيم عبد الكريم قاسم 29ــ 33

شخصية الزعيم عبد الكريم قاسم 34ــ 37

ما بعد الزعيم عبد الكريم قاسم 37

حكم البعث 37 ــ 40

الدكتور عبد الرحمن البزاز 40 ــ 42

اعتقال الدكتور البزاز 42 ــ 44

الفصل الثالث : 45ــ 84

زيارة آية الله السيد محسن الحكيم 53 ــ 54

أبو طبر 54 ـ 62
كارثة التسمم بالزئبق 62 ـ 65
الجنرال كريشكو في بغداد 65 ـ 68
الأستاذ طه محي الدين 68ـ 70
الحاج خير الله 70ـ 71
التفرغ العلمي 71 ـ 73
رئاسة قسم الطب 73ـ 76
الرئيس البكر والطب 76 ـ 79
البكر في زيارة الحمزة (رض) 79 ـ 82
عالم زائر 82 ـ 84
الفصل الرابع : 85 ـ 92
التنازل والتتويج 85 ـ 86
اعتداء صارخ ولياقة المسؤول الكبير 86 ـ 87
حجب السفر وإختفاء الجواز 87 ـ 91
وفاة الرئيس البكر 91 ـ 92
الفصل الخامس : 93 ـ132
السيد صدام حسين 93 ـ 99
التأميم 99 ـ104
التقاعد المبكر 104 ـ118
الإشتغال في الإمارات 118ـــ119
بدايات المصائب أو بداية النهاية الحرب العراقية الإيرانية 119 ـ 131
مجزرة خان النص والدكتورعزت مصطفى"الزيارة الشعبانية"131- 132
الفصل السادس : 133 ـ 151

الأحداث الجسام 133 ـ 134

التنازل عن العرش 134

هل انتهت المسرحية ؟ ـــ المؤامرة 134 ـ 135

الرجات الكثيرة والزلزال 136

حسين كامل 136 ـ 138

إجتياح الكويت 138 ـ 139

غزو العراق وإنكساره 139 ـ 140

الإنتفاضة زلزلة الجنوب العراقي وآثار حرب العراق 140 ـ 142

الأنفال 1988 142 ـ 143

الزلزال الأكبر ـــ الهرب واللجوء 143 ـ 145

التفتيش 145 ـ 146

عرس الرجوع 147

تركات هذه الأحداث على العراق ـــ النفط مقابل الغذاء 147-168

هيئات ولجان التفتيش 148

الحرب الحقيقية على العراق 148 ـ 149

معركة الناصرية 149 ـ 151

فصل الختام 152 ـ 166

خاتمة الطبعة الثانية (مايس 2012) 161 ـ 166

ملاحق 167 ـ 168

الجنون فنون 167

صورة من قرار إحالة الدكتور فرحان مع مجموعة من

الأطباء على التقاعد 168

مقال الصحيفة البريطانية حول مجزرة مدينة الطب 169



الأستاذ الدكتور فرحان باقر معروف في عالم الطب في العراق والمنطقة والعالم ، درس ومارس مهنة الطب لستة عقود ، له عدد كبير من البحوث المنشورة في الدوريات المحلية والعالمية وصاحب كتاب {لمحات من الطب المعاصر في العراق} .

يركز في كتابه هذا على أربعة رؤساء للجمهرية ورموز أخرى عندما كان الطبيب الرئيسي لهم ، إذ يكرس ملاحظاته الدقيقة من خلال العلاقة المباشرة بهم خلال تلك المدة من حكم العراق وانعكاساته على بلدنا الحبيب .

كتاب "حكيم الحكام" إضافة للمكتبة العربية مهمة للأطباء والمؤرخين والقراء على حد سواء .

الدكتور فرحان باقر

أستاذ متمرس

2013